

# إخوار الغروب

أندريه مالرو

ترجمة: محمد سيف



كتاب شرقيات للجميع ( ١١ )



إخواننا الغرب

إغواء الغرب

أندريه مالرو

ترجمه: محمد سيف

الطبعة العربية الأولى ١٩٩٥



© دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ شارع محمد صدقي - هدى شعراوي

باب اللق - القاهرة

س . ت : ٢٦٩١٩٨ ت : ٣٩٠٢٩١٣

غلاف وإخراج: ذات حسين أبوزيد

صدر هذا الكتاب

بالتعاون مع

الهيئة الفرنسية

للأبحاث والتعاون

قسم الترجمة

القاهرة



# إِخْوَانُ الْغُرَبِ

أُتَدْرِيبُهُ مَالِرو

ترجمة : محمد سيف



العنوان الأصلي:

La tentation de l'occident

André Malraux

Grasset

« إن الذي يقتفي الآثارَ زمنًا طويلاً

يتشابهُ مع ظلهِ... »

مثل مندي من المآلبار

إليك، ياكلارا،  
في ذكرى معبد بانتياي - سراي

## ملحوظة

الرسائل التي تكون الجزء الأعظم من هذا الكتاب، كتبها م. م. أد، فرنسي، في الخامسة والعشرين من العمر، لديه بعض المعرفة بأعمال الصين، والسيد لينج. و. ي.، صيني، في الثالثة والعشرين، المأخوذ بفضوله للثقافة الغربية، ذلك الفضول الذي عانى منه بعض من مواطنيه، والتي هي ثقافة كتابية فحسب. وقد تبادلوا هذه الرسائل خلال رحلات قاما بها، الأول في الصين، والثاني في أوروبا.

ولئن لم ير البعض في السيد لينج رمزاً شرق أقصوي. فإن رمزاً كهذا الذي يروونه ليس وارداً تَحَقُّقُهُ. إنه صيني، كما تقدم، فإن له من الحساسية والفكر الصينيين قدراً لا يدفعه بدرجة إلى إعدام الكتب الأوربية، ليس غير.

وهذه الرسائل تم انتقاؤها. ونشرنا لها، فإننا نهدف إلى تحديد أبعاد كل من الحساسيتين، وأن نحفز الذين سيقرونها على التفكير في طبيعة كل من مشاعرهم وعقولهم، التي تكاد تبدو واحدة.





---

على سطح الشامبورده

على أنني ما لقيتكم. أيها المتوحشون الذين يظهرون على غير انتظار ويقدمون للبحارة الفاخرة التي لها شكل القرون على الصحاف البدائية، بينما تُطلّ القباب من وراء النخيل، أيتها الكشوف... إن الرجال الذين يتصيدون الأشكال واحداً بعد الآخر ويوصدون عليها الكتب قد أعدوا كل ما يعتمل في عقلي. موكب من الكائنات والمشاهد الطبيعية يتراعى لمخيلتي ببطء، هذا المساء، في صمت الليل على البحر وديبب الآلات المنتظم حتى يكاد يتحد معه... هدوء عظيم، بحر مصقول، ساطع، تتراقص فيه نجوم الأعماق... في أثر سير السفينة تختفي ظلال آخر العشائر، من رافعي جماجم ثيران الأوروش الضخمة - تُرى رايات هي أم أسلاب؟- الذين يخطط ظلهم المتعرج السهول. على مبعدة، جيوش آسيا الوسطى العاصفة، ببيارقها العالية المهيمنة على كل ما في طريقها، والمزخرقة بالوشوم العتيقة السوداء. في الزمن الغابر.

في عمق الحريم، المحظيات، على مقربة من كوة في الحائط، كانت إحداهن (وهي التي ستصبح وصية فيما بعد) تُحدث

حَصِيًّا ذَا عَيْنَيْنِ مُسْمَلَتَيْنِ، وَفِي الْقَصْرِ الْبِنْفَسَجِيِّ، يَتَفَحَّصُ  
الْإِمْبْرَاطُورُ الْبَقَايَا الْأَثْرِيَّةَ الَّتِي قَامَ عَلَى الْبَحْثِ عَنْهَا فِي كُلِّ أَنْحَاءِ  
الْإِمْبْرَاطُورِيَّةِ. كَانَ الْجَوُّ بَارِدًا. وَفِي الْخَارِجِ، صِرَاصِيرُ الْحَقْلِ  
الْمُتَجَمِّدَةُ تَتَسَاقَطُ مِنْ عَلَى الْأَفْرَعِ فَوْقَ الْأَرْضِ الصَّلْبَةِ مَحْدَثَةً  
أَصْوَاتًا كَأَصْوَاتِ اصْطِدَامِ الْحَصَى. فِي وَسْطِ أَحَدِ الْمِيَادِينِ، السَّحْرَةُ  
الْأَشْرَارُ، يُحْرَقُونَ عَلَى مَحْرَقَةٍ مِنْ أَحْطَابِ زَكِيَّةِ الرَّائِحَةِ. الدُّمَى  
الْخَشْبِيَّةُ الصَّغِيرَةُ الْمُحْفُورَةُ، الَّتِي كَانَتْ تَسْتُخْدَمُ رُقَى لِلْأُمِيرَاتِ  
تَفْرُقُ وَهِيَ تُلْقَى كَالسَّهَامِ النَّارِيَّةِ. وَالْجُمْهُورُ -جَمْعٌ مِنَ الْعِمْيَانِ!-  
يَتَرَاوَعُ بِحَمِيَّةٍ. عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ الْأَفْقِ، فَوْقَ الْأَعْشَابِ الْبَرِيَّةِ، خَطٌّ  
مِنَ الْهَيْبَاكِلِ الْعَظْمِيَّةِ يَفْتَرَسُهُ النَّمْلُ الْمُتَعَقِّبُ لِسِيرِ الْجِيُوشِ.  
وَيَاقْرَبُ مِنَ النَّيْرَانِ، السَّاحِرَاتُ الْأَرَامِلُ يَقْرَأْنَ الطَّالِعَ.

وتَهْرُولُ الثَّعَالِبِ مَسْرَعَةً وَهِيَ تَعْبِرُ الْأَنْحَاءَ.

كُلُّ رَبِيعٍ يَغْطِي بَرَارِي مَوْنِغُولِيَا بَزْهُورٍ تَنْتَرِيَّةٍ، بِيضَاءَ ذَاتِ  
قَلْبٍ أَرْجَوَانِيٍّ. تَعْبِرُ عَلَيْهَا الْقَوَافِلُ؛ التَّجَارُ الْأَقْذَارُ الَّذِينَ يَسُوقُونَ  
الْجَمَالَ الْكَبِيرَةَ الْمَشْعُرَةَ الْمَحْمَلَةَ بِالْخِرَاجِ، الَّتِي تَتَفَتَّحُ عِبْرَ الْمَرَاوِحِ  
كَالرَّمَانِ. وَكُلُّ صَنْعَةِ الْجِنِّ لِمَمْلَكَةِ الثَّلُوجِ، مِنَ الْأَحْجَارِ الَّتِي لَهَا  
لَوْنُ السَّمَاءِ الصَّافِيَّةِ أَوْ النَّهْرِ الْمُتَجَمِّدِ، وَالْأَحْجَارِ الَّتِي لَهَا  
انْعِكَاسَاتُ الثَّلِجِ وَالرِّيشِ الْمَبْلَلِ لِلْعَصَافِيرِ الرَّمَادِيَّةِ، وَجُلُودِ الثَّعْبَانِ  
وَالْفَيْرُوزِ الْمُطْعَمِ بِالْفِضَّةِ تَنْهَالُ عَلَى أَصَابِعِهِمُ الرَّشِيقَةَ.

مِنْ أَعْلَى الصَّوَامِعِ ذَاتِ الْأَسْقَفِ الْأَفْقِيَّةِ لِمَقَاطِعَاتِ التَّهْتِ،  
يَنْزِلُ أَجْمَلُ الْأَسْرَارِ، عَلَى طُولِ الرَّمْلِ الْمَلْبَدِ، حَتَّى سَاحِلِ الْبَحْرِ  
حَيْثُ يَتَفَتَّحُ فِي عَدَدٍ لَا يُحْصَى مِنَ الْمَعَابِدِ الْمُقَبَّبَةِ الَّتِي تَعْلُوهَا  
الْأَجْرَاسُ الرَّاعِشَةُ. الْبَشَرُ مِنْ بَنِي جَنْسِي يَأْتُونَ إِلَى هُنَا عَلَى

قوارب بغير أشرعة ولا أعين. يدخلون الموانئ مع النهار.

الماء المزيد الداكن، يردُّ أصداء الصيحات الأولى للبحارة بأوضح منها ؛ وبأعلى القوس المعتم، تعلق المدينة كلها بالخائض الذي يكملها والمزهر بالمعابد شيئاً فشيئاً مع شروق الشمس ؛ على امتداد منظرها الجانبي الجاف تظهر عُمرُ وزركشات الضوء. هاهم يبلغون الأرض، بعد الاصطدام ببعض الصخور. وهاهم يتجولون، سعداء وقلقين، وبالشوارع ذات الروائح التي تزعج أنوفهم، تتبعهم أصوات القطع الفضية التي يسعى لمبادلون إلى إثبات عدم زيفها برئها بمطارق صغيرة. فجأة لمحو امرأة، وانسدل الستار، فحكفوا على تذكر وجهها المريح وقدميها الصغيرتين، وسروالها الحريري والبقعة التي على صدرتها، ففي بطن غابة سوداء، ظل أشقر وزهراء معذبة...

هاهم يزورون بنوك الرهونات، وهي أبراج مثقبة بالفتحات، بجوار كل فتحة يوجد صحن مليء بالكبريت الذي يُلقى به الحراس على اللصوص عندما يحاولون الاستيلاء على النفائس المعهود بها للدولة.

من ثمَّ يعودون، يترجعجون على نحوٍ فظٍ بالمحفّات الثقيلة، الآن تملئهم حجورهم بأكوام مشترياتهم. هذا الثوب من الساتان الأبيض، كان فيما مضى ثوب الحداد لأميرة من الجزر، راهن أحدهم على تاريخ موتها بلؤلؤة حمراء بين شفثيه. في عمق مجرى السلام الشامل، الكهول المحاطون بالشمس يقومون أمام المراهقين الوقورين بعمل الإشارات السحرية التي تحدد بناء المدن، البعيدة جداً، في تركستان أو التبت، وعند تجار الطيور،

البيغاوات التي تتحدّثُ لغاتٍ معقّدة، تَلَقَّنَتْها فيما مضى، لدى الحكماء ذوي الطواقي المجوسية، في الأربعين ألف جزيرة البربرية توغل المغامرون البيض إلى الداخل مسترشدين بالخبثاء، المشرقيين المنتمين لجمعيات سرية. ويعد أن تعلموا المنشورية وحلقوا حواجبهم، تزوجوا هناك بالمنشوريات. كان من بينهم جنرالات مرموقون، يقودون الجيوش الامبراطورية. وقد تنكروا تماما لأصدقائهم، والذين حاولوا رؤيتهم تعرضوا للموت بأوامرهم وفي الشمال الفطن المتجبر، كان الامبراطور وحيداً في عمق أكثر القصور مهابة في المدينة المحرمة، ينشر أصابعه الخفية على صين العمل، صين الأفيون، وصين الحلم، عجوزٌ كبيرٌ أعمى مُتوجُّ بالخشخاش الأسود... ظلالٌ عتيقة، حكماء وعسكريون، أباطرة تانج؛ أروقةٌ صاخبة تتصادم فيها كل عقائد وأنواع سحر العالم، مفكرون تاويون، ملكاتٍ مثبتات على الحائط بالأسهم الغليظة، فرسان بأسلحة مزينة بذيول الخيل، جنرالاتٌ موتى تحت خيام ضائعة بعد ستين انتصار، قبورٌ لم تعد تحفظُ شيئاً، في قلب الصحراء، محفورة صورٌ خَيلها وجنودها على شواهدٍ منفصلة، أغانٍ نادية، سهامٌ متوازية وجلودٌ حيواناتٍ تتقدم عبر الأراضي الجديباء في ليلٍ صقيعٍ فماذا ساجد من الهجمة الطرشاء لغزواتكم، سوى الأطلال؟



---

من لينغ إلى أ. د

مارسيليا.

السيد العزيز،

نادرا ما تستدعي أوروبا التخيلات الجميلة، ولقد أتيتُ إليها  
بفضولٍ عَدائيٍّ، فالأوهام التي خلقتها فينا، نحن الصينيين، كانت  
من قلة الوضوح بما لم يمكننا معه أن نجد فيها إرشاداً أو نجد متعةً  
في تحويرها: فالكتب، وقلقتنا الخاص، جعلنا نبحث عن فكر أوروبا  
بأكثر مما نبحث في تجسدها. وحاضرها يجتذبنا أكثر من الإطار  
المهشم لماضيها الذي لا نطلب سوى بعض الإيضاحات حول قوته.

إن اسمها لا يثير في الذاكرة لا لوحات ولا رغبات. فالصور  
الفوتوغرافية التي شهدتها لها في الصين لم تُظهر كما يجب حركة  
الجمهور في الغرب، بحيثُ كُنْتُ أعياها كبلادٍ أفرستها الهندسة.  
فقباب المنازل سقطت، وصارت الشوارع مستقيمة، والملابس  
صارمة، والأثاثات قائمة الزوايا. وصارت حدائق القصور تعرضُ  
-بشكل لا يخلو من تناسق- النظريات الهندسية. فما يبدو لي أنه  
روح أوروبا، هو الإبداع بلا توقفٍ من خلال العمل، لعالمٍ صار  
العملُ قدراً له. فالروضخ لإرادة الإنسان قد هيمنَ على كل شيء  
فيها

بل إن الجونك(\*)، ذلك الحيوان الأليف، يجعلني أري في القارب  
الشراعي الفرنسي مجموعة من المثلثات الهندسية. وكانت أوروبا،  
أكثر ماتكون بالنسبة لي، هي المكان من الأرض الذي تحققت فيه  
المرأة.



---

(\*) الجونك: القارب الصيني

/٢٢/



باريس.

السيد العزيز،

أود أن أضيف بضع كلمات على خطابي الأخير الذي أرسلته لك يشجعني في هذا من ناحية أنني أبدأ في التعرف على القيمة المرتبطة بحسن نية المثقفين الفرنسيين، الذين يشبهون قليلاً هؤلاء الذين نراهم بالصين ومن ناحية أخرى لأن بضعة أسابيع قضيتها هنا أضفت تحديداً على انطباعاتي. إنني أرى في أوروبا بربرية تم تنظيمها جيداً، حيث فكرة الحضارة وفكرة النظام تمتزجان يوماً عن يوم. فالحضارة ليست قَطُّ شيئاً اجتماعياً، وإنما نفسي؛ إذ لا يوجد سوى أمر واحد حقيقي: هو الشاعر.

ماذا أقول عن هؤلاء البشر من بني جنسك؟ إنني أدرسهم، وأكُتِبُ على اللجوء إلى الكتب. وأنا أعرف أن مترجمينا، لكي يجعلوننا نعرف عادات أوروبا وكذلك أدبها، قد عمدوا لاختيار بلزك، وفلووير، والطبيين الفرنسيين، والروايات الأولى لجوته، وتولستوي، وديستوفسكي. وتحليلهم لموهبة بودلير أظهرها عناية فائقة، لكن هؤلاء المسيحيين الاستثنائيين، عديمي الشعور تقريباً، غير أولئك الذين يصرخون ويكون لآلام إماماً بوفاري والإخوة كرامازوف - ومع ذلك...

أي انطباع بالألم يطغى على مشاهد الحياة عندكم، في كل هذه الكائنات المسكينة التي أراها في شوارعكم، فلا تُدهشني حيويتمكم بنفس القدر الذي تدهشني هذه الوجوه المتألّمة التي لا أستطيع تجاهلها. لأن الألم يبدو وكأنه في صراعٍ وجهاً لوجهٍ مع كل واحدٍ فيكم ؛ وبألها من معاناة خاصة!

إن عقيدتكم، السالفة، التي نظمت عالمكم بدهاءٍ، توقظُ فيّ خصومةً ما، فليس بمقدوري النظر بغير احترام للصور شبه البربرية التي تأبد، بسببها، عذاب هائل متناسق. ولكنني لا أستطيع أن أمعن خيالي بغير أن يضطرب تأملي في أن كل قوة الحب تتركز على جسد مُعَدَم. والمسيحية تبدو لي أنها المدرسة التي جاءت منها كل الأحاسيس التي تشكل بها الوعي بأن الفرد يتعيش معرفياً على ذاته. لقد ذرعتُ صالات متاحفكم، وجعلتني عبقرتكم أطفح ضيقاً. لقد وجدتُ قوةً متوحشةً تحيا في آلهتكم نفسها، وفي عظمتها المبقعة كصورها بالدموع والدم. فحتى الوجوه الهادئة التي أردت أن أحبها منها، كان قَدْرُ مأساويٍّ فوق أجفانها المسدلة: لأنكم اخترتم لها أن تكون ممثلةً للموت.

هناك أيضاً رؤانا نحن للحياة، التي هي تهجدٌ حسي وهي تحاصرني بأكثر مما تُضيقُ عليّ الرؤى الأخرى. ألا تشعرُ إذن قبل كل شيء أنه لا يد لك أن تكون من جنسٍ متوج بتاجٍ ثقيل من القوة والألم، لكي تُفاخر باكتشاف جسد امرأة؟ إن عملاً فنياً حسيّاً من هذه الأعمال التي تحبونها، عملٌ من شأنه أن يشير القادرين على تذوقه بهذه الطريقة، وهذه الجاذبية أو القدرة هو عمل غير ناضج. وما يعطي القيمة لأنفس لفائفنا الحربية، هو

قدرتها على أن تولد فينا الشعور بالتنوع اللانهائي للعالم.  
والفنون، فضلا عن ذلك، قليلة النبيل في ذاتها، وما يرفع من  
قدرها يأتي من عناصر الصفاء التام في صيغها اللانهائية التنوع  
فهذه الحزفيات ليست هنا إلا لتأسر، واحدا بعد الآخر، الأشكال  
الألف للجمال التي تواربها تلك الغرفة المعتمة التي يكتنفها  
الصمت.

فهي لا تُحصَى، ومجهولة، تلك الانفعالات المحكمة التي  
تجعلنا نهم حول العالم، وأيدينا متحدة في قدح من اللذة لا  
تستقر على شيء فيه، بمثل ما لا تستقر تلك البقع الزائلة التي  
يشكلها خيالنا من الظل...

والفنان ليس هو الذي يخلق: إنه الذي يشعر. ومهما تكن  
الصفات، والجودة لعمل فني ما، فهو غير ناضج، بما أنه لا يعدو أن  
يكون اقتراحاً جمالياً. وكل الفنون زخرفية. فقد نتقي في  
حدائقنا شجر البامبو، وهو الذي تحب عصافير الخيال المتنوعة  
الألوان أن تأوي إليه، وأشجار البانيان، التي لها جلال الأناشيد  
الجنائزية، وقد نعهد برعايتها لبستاني كف، ونعطي له راتبه  
وبعض الاحترام. لكننا إذا نظرنا إلى النهر الذي تنعكس عليه :  
سنجد أنه الوحيد الجدير بها.

كل حضارة تُنمذج حساسية ما. والإنسان العظيم لاهو الرسام  
ولا هو الكاتب ؛ إنه الذي سيعرف كيف يصل بهذه الحضارة لأعلى  
مراحلها. مُنقياً في ذاته حساسية جنسه، عاملاً بلا توقف، على  
جعلها تعبر عن نفسها باتجاه متعة أعلى. وهذه هي حياة الذين  
في عداد ذلك النوع من الناس بيننا والذين تسمونهم بالأساتذة.

إن التفوق بالنسبة لكم. هو تفوق رجل السلاح، وتفوق الألم، وبالنسبة لنا هو تفوق الكمال، الذي يأتي من شدة العاطفة التي يوقظها فينا شعورٌ ما. والكمال عندكم، هو التضحية. والإعجاب يأتي من فعلٍ أما عندنا فهذا الكمال وذلك الإعجاب هما فقط الوعي بالوجود على النمط الأكثر جمالاً. فأنتم من خلال الأشكاله القديمة لفنونكم التي أسميتموها بالجليلة، تعبرون عن الفعل وليس عن الحالة. هذه الحالة التي نعرف عنها أنها طوع أمر كل من يحوزها، وهي حالة الصفاء، حالة تفتت النفس على مشهد من النور الأبدى، التي لم يحدث أن بحث الغربيون عنها أبداً، ولا عن تعبيرها، ولا حتى استعانوا بالقبس الخافت الذي يعرضها في بعض مواضع البحر المتوسط.

هذه الحالة هي التي جاء منها التعبير الوحيد الجليل للفن وللإنسان؛ وهي حالة السكينة.

وكنتُ أودُّ، أيها السيد العزيز، أن أحدثك أكثر عن البشر؛ ولكنني لم أرَ بعدُ سوى الأعمال.



باريس.

السيد العزيز،

إني أرى الأوربيين، وأستمع إليهم، وأعتقد أنهم لا يفهمون ماهي الحياة. لقد اخترعوا الشيطان؛ وإنني لمتنُ لخيالهم في هذا؛ ولكن منذ أن مات الشيطان، يخيل لي أنهم صاروا فريسةً الوهية فوضى أعلى منه مرتبةً : وهي العقل.

لقد قُدَّ العقل عندكم بطريقةً أحادية، مثله في ذلك مثل الحياة، التي لا تدركونها إلا مُجزأةً. فدائماً أنتم متجهون نحو هدف، ونحو ذلك الهدف أنتم محمولون عن بكرة أبيكم. أنتم تتردون الغلبة فماذا تجدون تحت انتصاراتكم البائسة؟

نحن الصينيين، لا نريد إدراك حياتنا، إلا في مجموعها. ليس لأننا قادرين على معرفة هذا المجموع. لكن لأننا نعرف أنه يتخطى كل فعل من أفعالنا، وأنه بالضرورة يتجاوزه. ومثلما، قد يُوجد بين التخطيطات القديمة رسمُ ذراعٍ ولا يُعرفُ شيءٌ عن الموديل صاحب هذه الذراع في الحياة، أنتم تعرفون أنه كانت في نهاية هذه الذراع يدٌ ما، ونحن بنفس الشكل. نشعر أنه بعد كل فعل، أيا ما كانت أهميته، فإن له حياة تظل خفية، تبعث بتفرعاتها التي بغير عد. فالحياة متوالية من الممكنات من بينها لذتنا أو ميلنا الخفي

سواء للانتقاء أو للزخرفة... ونحن لا نريد أن نفعل بعقلنا، إلا ما يفعل المتفرج على لعبته الخاصة، لعبة التحوير المتوالي للكون. وأعلم أن ذلك يبدو لكم عبثاً. لذا فإن حركات الظل التي تكون كل ما يمكن لروح نقية أن تسترقه بالعالم وما يعرضه العالم نفسه بصوت خفيض تبدو لي مع هذا أنها العَرَضُ الوحيد الذي يمكنه بغير خجل أن يتمتع كائنا متحضراً.

ومن المؤكد، أنني، برغم الاهتمام الذي أصرفه، ليس بمقدوري أن أَلِمَ بعملٍ فني قدر إمامكم. فحساسيتي تتعارض مع ما يحده عقلي. ولست أرى في ذلك ما يعني أن لديكم الرغبة في الواقعية، وإنما تعبير عن نقص في الحساسية فهل لايحظى المقبل من الحياة بنصيب من الواقعية لمجرد أنه مستقبل؟ والأهمية التي تضيفونها على بعض الأقدار التي تعصف بكم، لأنكم لم تتفهموا أنها لم تعد بنفس الحدة، ألا تأتي من ذكاء غافل، وربما مُعَدَّ بطريقة سيئة بواسطة عقيدة لاتألو جهداً في أن تزوع فيكم الاعتقادَ بتحقيقكم الشخصي؟ لقد صنعتم من حياتكم قُرْباناً للقررة. فأنتم تخلطون بينكم وبين أفعالكم، وحتى في فكركم فأنتم ما زلتم بعدُ تفهمون بصعوبة أن الوجودَ ليس مشروطاً بالفعل، وأن العالم يغيركم بأكثر مما تغيرونه...

كل شيء واضح فيما نسعى نحن إليه ونحن نريد، سواء في الفعل أو في الفكر، أن تكون لنا القدرة، بإيعازٍ من حساسيتنا واللحظة، على الاختيار بين المظاهر المتوالية للأشياء التي يعطيها الزمن. فهذه هي إمكانية التغيير الدائمة التي تَنشُرُ على الصين سَلْطَتَها الغامضة والمتعددة؛ والتي تأتي منها تلك الرجفة الجليلة

التي تبحث عنها. فكم من التجار رأيتهم يقامرون ضد واحد من مستخدميهم بكل تجارتهم، فيخسرون ويغيرون مواقعهم بمواقع غرّمااتهم ؛ ثم بعد ذلك بوقتٍ طويل، يغامرون ثانية، فيكسبون ويستعيدون الزمام الذي فقدوه! ونادراً ما تتحقق من أن على وجوههم لمحة ندم. فليس بمقدرٍ أحدٍ أن يعطي أهمية للحظات المؤلّدة لحياة في الغيب، لكنه يشعر من خلال هذه اللحظات بالواقع وبأن هذا الواقع ربما يأتي عليه حين يزينه بالثروة.

لقد أثقلتُم الدنيا قلقلًا. وباله من شكلٍ مأسويٍ أسبغتموه على الموت! إن رؤية مقبرةٍ في مدينةٍ أوروبيةٍ كبيرةٍ توقظ فيّ مشاعرَ شنيعة. فيأتيني في الرؤيا هؤلاء الأحياء الذين نراهم يعيشون بيننا اليوم، وهم في سِياجِ الموتى حيث يهيمن طائرُ الصمتِ على جمعِ القبورِ المتألّفة...

في أرضِ الموتى هذه المتشربة بالرقّة، عاطفتان فقط نشعر بهما: الألم والخشية. وفي كتاباتكم الشعبية، نجد أن الموتَ هو نفسه رمزُ الرعب. ولكم تبدو بعيدة عنكم الشياطين الخضراء والصفراء التي تعجُّ بها النكاتُ العديدة لدينا، وتلك الثنائين التي تُولي ظهرها عندما تُرَبّتُ عليها وكل هذا الحشد من الوحوش الرؤومة التي يتجرجر خلفها، بغير أن نشوش على جلالِ الموت الآسيوي.

بِمَ أن هذا النفوذ الثابت للموت، الذي اعتقد الأوروبيون أنهم قد فطنوا إليه في الصين ليس سوى وهم وجنون. فإن القبور التي لا تُحصى التي تركناها، بغير تصوّرٍ للدنّس، تأتي إليها الأرناب، تُقوّي قينا إحساساً بأنه لا يوجد مشترك مع شعورك بالموت. فهذا

الشعور عندنا عاطفة رزينة وهو كذلك وعي بأن الكائن لا ينحصر في ذاته، ويأته وعاء للوجود أكثر منه وسيلة للفعل. إن كلاً منا يُكرّم موتاه، والموتى، هم أشبه برموز قوة تغمرنا، وهذه القوة هي أحد أنماط الحياة، ولو أنه غير معروف عنها سوى وجودها. لكن هذا الوجود هو ما نشعر به. فهي تهيمن علينا وتشكلنا بغير أن نستطيع الإمساك بها. إنها حالة بنا كما لو أننا بشر، وكما لو أنكم مهندسون، حتى في الألوهية...

إن الزمن هو ما تصنعونه به، ونحن من يصنعنا الزمن.





باريس.

السيد العزيز،

لقد اتبعتُ نصائحك، وقد عدتُ من روما حيث قضيتُ بها وقتاً طويلاً بعض الشيء. ولقد تحققتُ فعلاً من جاذبية هذه الحديقة الجميلة لبيع العاديّات المهمّلة، التي تُقدّم فيها آخرُ الآلهة اللاتينية هذا التناسق الجاف إلى حد ما والذي تسمونه الأسلوب. ولكن مع ذلك قد توارت فيها، على نحوٍ خفيٍّ بعض الموضوعات شديدة القوة للتأمل المسترق لأوربا، فهل تعترف لي بذلك؟ إنني لم أجد في روما هذه الروح التي تغمر عدداً من المدن الفريدة، والتي ذهب بي غيابها إلى حد التعاسة. ومع أنني تعلمتُ شيئاً فشيئاً أن أنفعل بهذا المشهد الطبيعي الذي حاولتُ فيه التذكارات الكلاسيكية عبثاً أن تنظم فضاءً لا متناهيًا، حيث أحاطتُ بالمعابد فناءً من الأعمدة المهشمة والكنائس البائسة التي زاحمت الروائع. إلا أنني لم أستطع أن أتعلم أن أجد كنه الشعور، الذي يصنع بالنسبة لنا، قيمة هذه الأماكن التي حَلَفْنَا لنا الماضي.

لقد فتشتُ عن روح روما العجوز، تحت آلاف الأشكال الشهوانية التي تركتها لنا ثلاثة قرون، كما لو كنت أفتشُ عن جذعٍ أثريٍّ تحت أنسجةٍ ثمينة. لقد جئتُ إلى هنا مدعوّاً من

انتصار العقول السالفة على أوهامها: فلم أجد أولاً سوى المتعة التي يجلبها الماء المثلج والأشكال التي توزعه في الطرقات التي كُست الشمسُ أحجارها العجوزَ فقد كان صوتها المليء بالعظمة القائمة محتجبا وراءَ أهازيج النوافير. تلك النوافير التي قرأتُ بالكتب فيما مضى عن سحرها، لقد طفئ التوفز الشهواني لأهتكم وصدفياكم البيرونية على المدينة المقدسة، وكل شارع كان يخفي في ظله الظل الحسي لبرنان.

لقد جعلتني بعض اللوحات الحائطية التي ترسم أرض قرطاج أقل إحباطا ربما وأقل افتتانا مما جعلتني عليه هذه المجموعة من الأروقة والمنقوشات الخشبية، والأعمدة المزهرة والحوانيت، ومما جعلني فيه هذا الفراغ الكبير الذي تظهر فيه خرائب الساحة على خلفية من البيوت الرومانتيكية التي تعلوها القباب المزينة. فمن قصر أدريان مروراً بمحلات العاديات، التي بداخلها على طول التبر، كمية من التحف المشوّهة إلى محلات الحلوى بمراياها المزينة التي تنعكس عليها رموز الإرادة الحجرية كل هذا يتحد لكي يجعل من هذه المدينة التي أخذتم منها شرائعكم صورةً للفوضى. والزمن اللاحق على هذه الأحجار قد تسلى بأن أضفى على مجدها الوحشي الرنقَ البحرَ متوسطي. وفجأة، أمام هذه اللعبة الواضحة تماما لزمن غربي وفكّه، رأيت ذكرى روما تختلطُ بذكرى الإسكندرية. العظمة مع الفظاظَة. وتمائيل الآلهة في شمس الصباح مع الجماهير العنيقة البيضاء بالميادين الفسيحة. ومع ذلك فبالقرب من الأقواس التي تكسوها الطحالب شبه السوداء، والأعمدة المنتسية في وسط الميادين الصغيرة غير المرصوفة حيث ينام الناس من العامة في الظل، وبالقرب من مسرح الكوليزيه

ديزرت، حدث أنني سمعتُ أصداةً نداء الامبراطورية التي سمعها الكثيرون منكم هنا. وكما لو توت الشمس المحتجبة لبضع ثوانٍ البحر غير المعتدل، فقد جمعتُ شتات أفكارٍ المبعثرة.

كنتُ أتساءل، ما فائدة التعاطف أمام القوة إذا لم يكن المرء امبراطوراً؟ هذا الشيء المزوق كامبراطورية كبيرة، العايب كانهبها. فهذه البشرية تعلم أن تمسكن حتى تتسكن. وباله من درس جنود غلاظا قائم في إطار ماهو مقبول من كل الأجناس، متجسد في المثال الذي يسلطن هنا بعض الأشياء المتدنية والحشنة. وحتى يحني البشر هامتهم إلى هذا الحد الذي يثير سُخْطِي... فإن البطش هو الذي يفعل هذا، وسيداً، أعلى من هالاته، يُدانُ له بالطاعة. إني أظن أن هناك بعض الضعف في وهج تيمورلنك أو الإسكندر، وهؤلاء البرابرة الآخرين. وإني لأفضل عنه الظلال الامبراطورية، التي احترمت الواحدة بعد الأخرى على مرّ التاريخ نموذج الشجاعة المقتنة. فإذا كان عليّ أن أحمي هامتي أمام النظام، فإني أريد أن يكون هذا النظام من أجلي، لا أن أكون أنا من أجله.

عدتُ، مع الابتسامة الحزينة التي استدعتها هذه الأفكار، عبر الشوارع الضيقة التي فرش فيها باعة البطيخ بضاعتهم خارجاً. متفكراً في هذه الخاصية المريبة للقوة التي قضت لكم على الروح الرومانية كلها في تصدع سلطانها لمدة قرن وأعادت بناء المناظير على أنواع بليدة من التراص. وفكرت ثانية، في أنني أفهم جيداً ما تقوله هذه الشذرات: إن الذي يضحى يشارك في عظمة السبب الذي يضحى من أجله. ولكنني لستُ أرى هذا السبب

عظيماً إلا بقدر ما به من تضحية. إنه في ذاته بلا عبقرية.  
والرجال الذين قادهم نحوه قد نُذروا للموت، الذي أخذوا منه أو  
أعطوه. فهل للبربرية أن تكون أقل همجية من ذلك، لكي تكون  
ذات جبروت؟

إن هذه الخرائب لا يجول في خاطري معها سوى نبيلها المدنس  
والمشوش. وآهاً لسهول سمرقند الجذباء، التي يغمرها اسم  
بحضوره، ومثذنتان سوداوتان تنتصبان في سماء صافية تصرخان  
بأشد المشاعر مأسوية!

وأسفاه! إنني أريد العثور هنا على القوة التي يحتاج إليها  
جنسي على نحو مؤلم، وأمام أجمل صورها، لم أستطع أن أخفي  
تقززي...



باريس.

السيد العزيز،

أود من جديد أن أحدثك عن روما. روما وأثينا، فمنذ تركتهما وهما تعيشان داخلي، تنطقان بحديث آخر غير هذا الذي سمعته من قبل، لتجبرانني على الإنصات إليهما ثانية. ذلك أن ما أراه في أوروبا، هو أقرب ما يكون إلى إحياء الصور التي في ذاكرتي. وأنا لم أحدثك عن أثينا لأنني لم أجد فيها سوى الريبة. وما أردت استخلاصه قد تحدد بداخلي ؛ وهو ما توقعته. في المدينة الجديدة، كان سحر بعض شجيرات الغلغل هو الذي لطف بالكاد من الكدر الذي سببته لي النصبُ التذكارية الحديثة.

وفي المدينة الأثرية انتظرتُ أن تحل بي حالة من الصفاء الأعجمي، فالمرشد الذي أراني إياها رمزاً لشعب مكمل بالفغار فوق حوائط قلعة، قد شوشني ؛ ولكن، من المحتمل ألا تكون هذه الفكرة قائمة بين الأفكار التي حصلتها خلال هذه الرحلة، إلا على صلة غامضة، لم تتعلق بهذه الأعمدة المهشمة وهذا الأفق الصارم، ولم تذكرني بمتحف الأكروبول الصغير، الأليف والهادئ، الذي أراني فيه عسكري يوناني عجوز بعض الأحجار هي أفضل رمز عرفته اليوم للغرب. لقد كان يحبها. وكان يتحسسها كأحد هواة

جمع التحف المتواضعين. ولكنه كان يفضل عليها زيتونة الربة  
التي باعني عُصناً منها مقابل ثمن زهيد.

وبم أنه لا يوجد جمال أبدي، فسوف يُواري الزمنُ قريباً بغير  
شك، موكبَ هذه الظلال التي كانت نقية وصارت فاتنة. ولكنه  
صحيح كذلك أن صفوة عقولكم يأتون إلى هنا بحثاً عن صورة  
نقية لأنفسهم. إنه مقدم النفوس الطيبة. المضيئة والمتلهفة لمعرفة  
ذاتها، فأى اعتبار أروع من هذا يمكن عطاؤه للموتى؟

ومهما يكن من أمر فقر هذا الثناسق، والحدود الإنسانية لهذا  
النقاء، فمنذ بضع لحظات. وعند تذكري لأنني شاهدت، ضمن  
الأشكال التي رأيتها، بالمتحف المتواضع بالنسبة للمتاحف التي  
رأيتها عبر العالم، رأس شاب بعينين مفتوحتين شدتني إليها  
كأنها رمز للعبقرية الإغريقية، بإيعازها العميق: وهو قياس كل  
شيء بمدار وحدة حياة إنسانية ما. لقد تساءلتُ، لماذا لم تحفروا  
تحت هذا الوجه المجهول اسم أوديب؟ إن تاريخ أوديب هو تاريخ  
المعركة مع أبي الهول بكل ما لديكم من قدرات. إن الوحش، سواء  
كان تينياً، أو أبا هول، أو ثوراً مُجْتَحاً، فهو واحد من مرايا الشرق  
؛ ولكنه أيضاً من هذا الجانب من الروح الذي حاول إخضاع  
اليونان، وقد عاود الظهور عبر القرون، في كل مرة طلب فيها  
البشر من الحياة أكثر مما يمكن أن يعطيهم الفكر. لقد مات في  
طيبة، وأعيدت ولادته بمصرَ والسودان، وعلى تخوم الهند حيث  
تغلب بدوره على هذا الأوديب المحزن: الإسكندر...

حياة واحدة لي، أنا الآسيوي. وكل العبقرية الإغريقية تكمن  
في هذه الفكرة، وفي الحساسية القائمة عليها. وهنا يوجد فعلٌ

إيماني. إن الإغريقي يؤمن بتميز الإنسان في العالم، كما يؤمن المسيحي باتحاد الإنسان بالله، كما نؤمن نحن باتحاد الإنسان بالعالم، وكلّ ينتظم انطلاقاً من هذا، من السمة الخاصة لألهته، تلك التي تهيمن عليها لالتجعل منها آلهة إنسانية، وإنما آلهة شخصية. إن أهمية الإنسان، والاكتمال الذي يتحسسه الإغريقي، نحن نعرفه مثله، ولكننا أدركنا العالم في مجموعته، وصرنا حساسين للقوى التي تكونه أكثر مما نحن حساسين للنشاطات الإنسانية؛ وقد هيمنت فكرة النوع الإنساني في روحنا على فكرة الإنسان الفرد. لقد أدرك الإغريق الإنسان كفرد، ككينونة تولد وتموت ومسيرة الحياة هذه، من الميلاد إلى الموت، تكتسب أهميتها في فكرنا وحساسيتنا، من أقسامها: الشباب، والنضوج والشيوخوخة، وهذه الأقسام التي لا وجود لها في فكرنا وحساسيتكم، صارت لفكرنا وحساسيتنا هي العناصر الأساسية للكون. وفي الوعي، وأكد أقول هذا الشعور بالوجود كجزء من الكون، الذي يسبق على نحو جبري المبدأ المجرد تماماً للإنسان، فإن هذه العناصر تُقيم مقام الوعي بالوجود وجوداً حياً، كلياً ومتميزاً، فوق كوكبٍ أرضي يساعده على ذلك، ليس فيه من صور مشبعة بالعاطفة سوى صور البشر والبحر وهذه حساسية خاصة فضلاً عن أن تكون فكراً، يأتي من هذه المشاهد الطبيعية شبه الجرداء ليخضع كل شيء عندهم. إن الغرب قد ولد هنا، مع الوجه القاسي لمينرفا، بأسلحته، وندبات مستقبله المعتوه والحمية التي تتصاعد فينا تُعدّ، كما تقولون، لإضاعتنا. فهذه التي تحرقكم تصرخ. وإن من الحكمة تركها تستريح في سلام، هذه الثنائين العظيمة التي تنام تحت الأرض، هكذا يعلموننا سحرة بلادتي...

فبعد موت أبي الهول، كان على أوديب أن يحارب نفسه.

روما. عندما يعثر المرء على العلامات الهيلينية هنا، لا يجد مقبرةً امبراطورية، يقدر ما يجد المكان الفريد الذي يعكس أكبر حيز من الأسف الذي استكان بهدوء إلى القوة فإذا كان للفرد أن يتعالى هنا أو يسيطر، فإن التلال السبعة تشير له لكي ينحني فهل يمكن فهم حضارتكم وإيقاعها بغير الاستماع إلى الحوار بين الصوت الشره والصوت المتعجرف الصاعدين من هاتين الأرضين المليتين بالرخام المهشم؟

لقد سرّني أن أرى في المدينة بعض الحراس الرسميين المرتدين للزي الروماني التقليدي القديم، الذين ذرّبوا كل ذكائهم على التصويب ببيلطة قاطعة على حُرْمَة من السيقان، وعددا من الكنائس التي جُلِبَت. أعمدتها الداخلية من المعابد الأثرية. ولقد سمعتُ بها صوتين مسيحيين: أحدهما يغني المجد لله، والآخر يسائل بغير أن يسمع وهذا الأخير لم يهتم أبداً بأن يحيط الإنسان وعباً بأي من هذه القوى، التي أكدت القطيعة بينه وبين العالم - من الجبروت إلى الشهوة - ؛ ويتدرداته، وحسراته، في المعركة الداخلية التي تؤلف قوام حياته، بل نسب إليه كل الأهمية والقدرة الفائقة: ووحدَه بالله. إن الشرقيّ اللامسؤول يستمد قوته من التعالي على صراع لا يراه مصيرياً. والمسيحي لا يستطيع أبداً أن يتفصل ؛ فالله وهو مرتبطان الواحد بالآخر من الآن وإلى الأبد، وليس العالم سوى الهباء الذي يزوق صراعهما. وفي العذاب المثقف للإغريق، مع القلق الخالص الذي لأقوه في محاولة أن يعطوا للحياة طابعاً إنسانياً. ينطوي عذابكم، وتخبّطكم الأعمى، لأن



اللّٰه قد تكشّفَ لكم عبر الانفعالات العنيفة ويحكم هذه الانفعالات  
تنطلعون نحوه. إنّ الله، الرؤوف... هو بالنسبة لكم حالة ؛ وهو  
بالنسبة لنا إيقاع.



---

منه إليه  
في إجابة على خطاب  
غير ذي أهمية

باريس.

السيد العزيز،

لا، ليست بالعذابات وحدها، إنها بكل العواطف التي تسبغ  
اعتقاداتنا الشعبية عليها الحياة. فهذه الأشكال الكدرة التي  
تصعد، في المساء من حقل الأرز، أو تغني خلف الأسماك الخزفية  
التي تزين أسقف المعابد؛ هذه التي تصطحبك، كالكلاب الشرسة  
الوفية، على طول الطرق الناشئة، هي العواطف. تتولد فيك،  
وتغادر لك لتلحق، عبر العالم، بأخواتها المختلفات والمستعصيات  
على العَدِّ. وكَم من هذه القرائن تتهامس معاً فوق أرض الخريف  
لتُحدثَ الجلبة التي تعلق الأشجار الغارقة في الضباب، بينما  
تُسقطُ قطرات الماء الثقيلة أوراقَ المانجو الملأى بالمطر واحدةً  
فواحدةً.

إنني لا أستطيع الاندهاش من ضعف البشر من بني جنسك  
إزاء عواطفهم. فطريقتهم في الرؤية، والتعامل مع الزمن، والفكرة  
التي صنعوها لأنفسهم، كل هذا يدفعهم بعيداً عنها. إن الحب  
يهمني أكثر من أي عاطفة أخرى. فقد وجدت فيه إنسانيتي،  
وأحبُّ أكثر أن أفعل ذلك اليوم؛ وبما أن النفور الذي أكنُّه لأوروبا  
لا يدافع عني دوماً ضدها فقد أصبحت متطلعاً أنا الآخر، لأن

أقتفي أثر صورتني، التي كنت قد رفضتها. فكيف أجد نفسي  
بغير أن أنظر إليك؟ وحين أراك تضيق بعض الشيء في الحب  
يغمرنني الأسف لعدم قدرتي على اللحاق بك ؛ فمن أجل أن يضيق  
المرء لا بد له من الإيمان بذاته.

يخيل لي أنكم تعطون لهذا الذي لا يعدو أن يكون اتفاقا  
شبه عام المسمى بالواقع أهمية مفرطة، إن العالم قد خُلِقَ بمقتضى  
هذا الاتفاق، ولذا فأنتم تتصلحون معه لأن إنكاره يتطلب ممن  
يحاول ذلك شجاعة فائقة، تكلفكم الكثير والعاطفة تبدو في  
نظامكم الاجتماعي، كما لو أنها صدعٌ مستقيم فأياً ما كان  
جنسنا، نحن نعلم كيشر، أننا نعيش في عوالم مُعدّة سلفاً، لكن  
نوعاً من السرور الوحشي، يغزونا جميعاً عند نداء حاجاتنا  
الأساسية يُرينا ما بها من استبداد. والإنسان العاطفي في خلافٍ  
مع العالم الذي أدركه، كما لو أن هذا العالم المفاجيء له والذي  
توقعه لن تغير فيه العاطفة شيئاً والإنسان الذي يرغب في الحب،  
يرغب في الهرب، وهذا نادر ؛ لكن المرأة أو الرجل الذي يرغب في  
أن يكون هو موضوعاً للحب، ويرغب في أن يضيق كياناً آخر  
فيه، يبدو لي أن انصياعه لهذا مُطيع لضرورة قاهرة للغاية بما  
يجعلني أصل إلى القناعة الآتية:

إن ما يتمركز في الإنسان الأوربي، مهيمناً على التوجهات  
العظمى لحياته، هو عبث في جوهره فهل لا تعتقد بهذا؟

لقد توقفتُ بعض الوقت عن الكتابة. وهذا السؤال يُلح عليّ.  
لأي شيء، إذن تريدون التماهي فيما تسمونه روح المرأة؟ فبم أنهن  
كن مسيحيات قد ضحين بعقيدتهن ؛ وصرن بعد ذلك يضحين

برأيهم، وأصبحن اليوم يعانين أكثر من هذه الصراعات، بم أنهُ  
المستحيل لهن أن يضحين بحساسيتهن ؛ ولو أن هذه الحساسية  
فيما يبدو ضعيفة في أوربا...

إنني أعتقد بأن العواطف التي تخبرونها لا تنظم عالمكم بما  
يكفي لحسابها حيث أنها لم تفتتكم. فهي لا تؤثر على القيم،  
ولكن على كثافة وجود الأشياء. ولا توجد وصفة علاجية لذلك  
سوى في مملكة الروح، وهنا بالضبط تقع مأساتكم. فليس يوجد  
في عواطفكم، شيء كالحب، يجعلكم تربتون على الحيوان قبيل  
إيقاظه. وعندما أقسر نفسي على أن أفصل بين عذابكم وبين  
موضوع الغزو، يبدو لي أحيانا أنني أشارك في بحث عن العذاب  
الحالص. ولا يغيب عن ذهني أن عقيدتكم علمتكم أن تبثوا في  
أنفسكم عن العالم القائم على الوعي المعظم لفوضاها الأساسية...

كل هذا للأسف ليس سوى محاولات بحث. ولقد تذكرت عن  
الصين بعض الاختلافات، ويغير محاباة كبيرة، هذا فحواها مع  
بعض التأملات:

إن المرأة موضوعٌ جدير بالاهتمام، حساس، كالعامل الفني.  
جميل، ومقدّر عليه بعض الواجبات. كأن يكون عليها أن تكون  
مخصبة ووفية، إن كان عليها أن تكون زوجة، جميلة إن كان  
عليها أن تكون محظية. خبيرة إن كان عليها أن تكون عاهرة. أما  
أن تكون شهوانية، فأمر لم يعد مرغوباً ؛ فيكفي أن تكون حاذقة  
في خدمة زوجها أو أن تبيع لحبيبها التسلية المتنوعة اللذة. إن  
فكرتنا عنها تمنعنا من أن نُضفي عليها شخصية خاصة. فكيف  
يمكن لشاب أن يحب فتاة لم يرها وخطبها له أبواه في سن

العاشرة؟ لذا فإن العاطفة التي يمكن لامرأة أن تلهمها لرجل، يعبر عنها كتابنا دائما باعتبارها خارج الزواج، بما أنها ناتجة عن عملية سحرية. وسواء بالنسبة لمن يكابد من الإذعان لها أو لمن يناضلها فهي دائما مسالمة. وهي أشبه ما تكون بالمرض القاتل، حاربة، ولا أمل فيها. فلا التملك، ولا يقين المعاشرة بقادرين على إضعافها ؛ فليس في مقدور البشر أن يتفادوا أقدار الجروح الأبدية...

وأدوار المحظية والعاهرة تتطلب أحيانا ذكاء، وتتطلب دائما المهارة والعناية ؛ لكن أية سمة فردية هنا تعد مهارة خاصة. إن بيوت اللهو المترفة التي نراها في أوربا تدهشنا دائما: فالقليل من الأماكن التي احتفظت بها أوربا البربرية تجعلنا من ناحيتها حساسين لهذه النقطة: فبين كل الأفكار التي يحملها الإنسان هل توجد فكرة قادرة على فضح حساسيته السرية غير فكرة المتعة؟ إنني لا أجهل أنه سيكون شيئا يدعو للسخرية محاكمة أوربا على هذه الأشياء ؛ ومع ذلك فإن الاهتمام بالنساء والرغبة فيهن، فقط لكونهن جميلات، دليل صارخ على الفظاظة! فليس بالصين عاهرة على درجة من القيمة ليست متعلمة وقادرة على أن تزين اللذات التي تمنحها للرجل بتلك التي يتطلبها العقل. إنها تقرأ وتقرأ دائما ؛ لكن هناك الجيد والرديء من الكتب، كما أن هناك الجميل والحقير من الزخرفات. ولا بد للعاهرة أن تكون متعلمة لكي يكون لها قيمة، وحاذقة لكي تحتفظ بهذه القيمة. وليس فيهن من ليست لها سمة خاصة إلى جانب هذه الثقافة وهذا الحدق، فهن تتشابهن من حيث الأنواع مع العاملين بالفن. إن الفضائل التي ننشدها في النساء هي نفسها التي تسرنا لدى رجل ؛ والعاهرات اللاتي يشتد عليهن الطلب هن اللاتي تنحنين دائما أمام الغلمان الصغار واللاتي

تم إعدادهن عبر اثنتي عشر أو خمسة عشر عاما من الدراسة...

إن من البديهي أن تَمَسَّ امرأة ما شغافَ نفسك لأنها متفردة. فكيف باستطاعتك تمييزُ ما إذا كنت تميل إلى أن تحب هذه المرأة وليس امرأة أخرى؟ إن هذا ليس بسبب الجمال: فالنساء القبيحات يجدن أيضاً مَنْ يحبهن. (فجمال المرأة، فضلا عن ذلك، ربما كان فرصة للزهو، ولكنه أبداً لن يكون وعداً بمتعة حسية) فالشيء الوحيد الذي يمثل وعداً حقيقياً هو تعبير الوجه، والصوت، والجسد. فهي تحقق كل الإغراءات المباشرة، وحتى هذه التي ستمحوها الأفعال بعد ذلك، والنفس المعروفة لا تسمح لوجهه بأن ينطق بأكثر من وعود منسية وهي تؤثر في الإنسان عندما تعرض عليه المشاعر التي هو بحاجة إليها أو يرغب فيها؛ من اللذة إلى المكابدة، فَيُسْتَثَار لها كما تُسْتَثَار جميعاً تقريبا، وخلاف ذلك لا يكون إلا تعبيراً عن حالاتٍ من الضعف نادرة وخفية، يكون فعلها فينا أشدَّ غوراً.

إن الفتيات الشابات والنسوة الشابات الصينيات لا يحاولن قط أن يتميزن بتعبير خاص. فتصقِف شعرهن، وخضابهن، وحقْرُ أعينهن أشياء مشتركة بينهن، بل إن غيابهن ربما كان أكثر من حضورهن. فقط العاهرات من المستوى الرفيع، كالجيشا في اليابان، يظهرن أحيانا. كذلك فهن بطلات كل حكاياتنا العاطفية. ومنذ أن تم قبول النساء بالجامعات ورفضهن للتقاليد، فإن طالبنا أبدوا اهتماماً فائقاً بهذا الشعور الذي أسميته الحب. وهم يرون بأسف أنكم تخلطون بينه وبين ما يتعلق به من رغبات جنسية، مما يجعل ما تقولونه في هذا الشأن يبدو لهم طافحاً بالجهل

والسذاجة، ذلك لأنهم يجهلون التأثيرات الواضحة التي عرفتم  
كيف تستخلصونها من الخيال.

إن الصينيين الشباب الذين يقرأون كتبكم تصيبهم الدهشة  
أولاً للاهتمام الذي تظهرونه لفهم أحاسيس النساء. وفضلاً عن أن  
جهداً كهذا يظل في رأيهم، أهلاً للازدراء، فهو بالضرورة جهدٌ  
يُفضي إلى هباء. فالرجل والمرأة ينحدران من نوعين مختلفين.  
كيف تفكر أنت في المؤلف الذي يصف لك أحاسيس طائر؟ إنه  
يقدم لك أحاسيسه هو مشوهة. وهذا هو ما ما نفكر به بالنسبة  
للكاتب الذي يحدثنا عن أحاسيس المرأة. رغم ذلك، ومن هذه  
المحاولة تأتي قوة الأوربيين. يبدو أنكم تأخذون بيد المرأة  
لتضعونها على أكتافكم؛ فهي تهكم لأنها تأسركم، ولكنكم أنتم  
الذين تمكثونها من أسركم. وفي إطار رغبتكم في أن تفهموها،  
فإنكم تحققون هويتكم فيها.

وتحضرني بعض أقوال لصديقك (ج. أ) وكان عائداً من  
سوريا. وتحدثنا عن النساء، حيث أنني منذ عدة أيام، أفكر فيهن  
باستمرار قال لي «لقد فاجأتني الاستشارات التي أيقظتها داخلي،  
في أول الأقطار الإسلامية التي زرتها. المحجبات اللاتي رأيتهن  
يسرن متمهلات في الشارع، يتبعهن خدمهن؛ كان ظلهن  
يتقدمهن بطيئاً على سور عالٍ شرع في السماء خطأً منحنياً من  
الشرقات الحمراء. ودفعني الفضول لتحليل الاضطراب الحسي الذي  
سببته داخلي الطريقة التي وضعن بها خُمُرهن على وجوههن.  
وأعتقد أنني تمكنت من تلطيف جدة الأحاسيس التي أسبغتها  
عليّ كلُّ واحدةٍ منهن. لكن هذه الأحاسيس التي خبرتها، قد



تحوّرت: فهي لم تُعدّ الأحاسيس التي بعثتها، ولكنها الأحاسيس التي تبعثها امرأة عرفتْ أحاسيسَ الرجال، وهي أحاسيس رجل تحول دفعةً واحدة لامرأة...» وإني لأجد بلا توقف هذا التناقض بين الموضوع والشكل الذي يمسك بحساسيتكم التي لطف من حدّتها هو بأن أعاد رسم أشكال العالم ووكّلي هارباً إلى الفكر. إن الحب الغربي، يستمد قوته وتعقيده، من الضرورة التي تتمثلونها في أنفسكم، طواعيةً أو غير ذلك، للمرأة التي تحبونها، متصلة مع الاتحاد المتضمن فيها بين العاطفة الرقيقة والمتعة الجنسية. وإن المرء لا يتخذ أبداً نموذجاً للحياة يتواطأ عليه بغير صراع.

إنني أنتظر إجابتك بتطلع كبير، وكلني أسف لأنه لا يوجد في اللغة الفرنسية كلمة تعبر عن هذه الفكرة بغير السقوط قليلاً في معنى التذلل.



من أ. د. إلى لينغ

صديقي العزيز،

إن الأهمية التي كرسنا أنفسنا لنعطيها لواقع (نا) ليست بالقطع سوى إحدى الوسائل التي يقوم بها العقل ليؤمن الدفاع عن نفسه. بم أن التأكيدات على هذا تؤيدنا بأكثر مما تجعلنا غير واضحين. فالبشر، لم يقنعوا أبدا في بحثهم عن حدود قدراتهم، لعدة آلاف من السنين سوى بتجريب هذا البحث، لقد وجدوه في العالم، وفي الله. وحاول الانتباه لأقوال أولئك الذين رأيتهم يبحثون داخل أنفسهم.

بالقبول مبدأ اللاوعي وتعليق أهمية فائقة عليه، حرمت أوروبا نفسها من أفضل أسلحتها. فالعبث، العبث الباطل المتعلق بنا تعلق الثعبان بشجرة الخير والشر، لم يختف كلية أبدا، ونحن نراه يعدُّ أعباه الأكثر إغواءً بالمشاركة المخلصة لإرادتنا. فبقدرها نحاكم غيرنا باعتيادية على أفعاله الأنانية، لا نحاكم أنفسنا؛ والعالم الواقعي، الخاضع للتحكم والإحصاء، ليس سوى هذا الذي يتحرك فيه البشر الآخرون. إن الهواجس ملازمة لعالمنا عبر سلسلة انتصاراته. ويضع لحظات من الوحدة والملل كافية لجعلنا ننع، في أنفسنا، على الذكرى السقيمة للأسلحة اللامعة: فالمد الفائق

لمآسي التاريخ والفن، يكمن في التلاعب اليومي على نحو غائر بالأعداء التي لا تُحصَى من حالات الوعي المعتم. وبما أن الروح الغربية هنا: في تخيلات الحلم هذه... فإن هذه الألعاب التي يبدو معها العبث فظيماً إذا لم يكن مشتركاً، تترك في أنفسنا آثاراً لها تقريباً قوةً الذكريات. إن المقل يُعطي فكرة الأمة: لكن الذي يُحدثُ وحدتها الشعورية هو الهاجس المشترك. فإخوتنا هم هؤلاء الذين عاشوا طفولتهم على إيقاع أشعار الفروسية والأساطير التي هيمنت على طفولتنا. لقد أحسنا جميعاً برودة وغمام صباح أوسترليتز. وانفعال ذلك المساء الطويل المؤلم حيث حمل البعض، للمرة الأولى، أرغفة السرخس في فرساي المثقلة بالصمت. وصور كهذه لا بد لها من بشر بيض لكي تعطيهم ذاتاً قومية.

إن القراءة، والعروض، عند الناس الذين بلا ثقافة، هي مصادر الحيات المتخيلة. ولا يوجد شيء أقل من أن يحظى بالاهتمام سوى الرغبة في المعرفة. والغرب، الذي يجهل الأفيون، عرف الصحافة. وصراع الطموحات المنتصرة أو المقهورة يوماً ما: هو صحيفة. فأى عالم لم يُؤججه هذا الصراع ولم يُزغ عينيه خلف حدقاتها! هذا هو ما يجعل تحقيقات البشر من جنسنا تحقيقات مسورة. لاشيء يدوي فيها بالصوت الذي ننتظر قدومه. إنك تظن، يا صديقي العزيز، بأنه لا يوجد لدينا الإنسان، الذي لم تقهره أوربا. وذلك ضرب من الاستسهال...

هل أنت ممن يتذوق الهزل؟ اذهب إلى السينما، إن عرّضها المحاط بالصمت وإيقاعها السريع لقادران بشكل خاص على التأثير في خيالنا. انظر إلى الناس الخارجين بعد انتهاء العرض:

سوف تجد أفعالهم متأثرة بأفعال الشخصيات التي شاهدوها. لاحظ كيف يعبرون الشوارع بعد ذلك بطريقة بطولية في روح الأوربيين، تقبع، يا صديقي العزيز. أسطوانات فارغة. وبعض الحركات التي تؤثر في حساسيتنا على نحو نشط، تتخفى فيها. وهي التي تتحفز بها رغبتنا أو خواؤنا ويبدأ الحيوان نعيته المسرحي. فنادرًا ما تعطينا ثقافتنا أو تزين لنا متعة أن نكون متلبسين بأشباح عشيقاتنا الأثيرات...

إليك هذا العرض الفريد في بابه؟ للعتة الذي يتأمل نفسه فهالة القوة التي تزين الشخصيات العظيمة تؤثر فينا بأكثر مما تؤثر أعمالهم - التي لا تعدو أن تكون إعداداً لهم لبلوغ حالتهم - ونحن نتخلى عنهم بمجرد أي تدخل غير ذي موضوع من الحياة الواقعية يجعلهم على خلاف معها. ففيم تهمّ القديسة هيلانة، أو ما إذا كان جان سوريل قد مات شنقا!

إن الشاب الفرنسي الذي لديه ساعة فراغ جعل نابليون يتمثل تصرفات الامبراطور التي تحركت في نفسه، وهو الامبراطور. فسيرُ الحيوانات الشهيرة توجهه، وتحني للحظة خياله المطيع الذي يهيمن عليها بدوره دفعة واحدة. وفي لحظات يتأسس على هذا الجنون وضوح كامل: فالجنرال المتخيل يعد الخطط المنطقية ويدفع بالصعاب المعترضة مستعينا بالنهاج المحددة. إن الروايات الغربية تريك بوضوح شديد، فضلا عن ذلك، أن ما يمكن أن يكون هاجسا يستمد من الذكاء الوسائل للقبول بجنونه.

نحن لا نرسم صورة وهمية لأنفسنا، ولكن صوراً عديدة، كثير منها ليس سوى بالكاد تخطيطات أولية، يرفضها العقل

بانزعاج حتى عندما نشارك في تحديد ملامحها. إن كل كتاب، وكل محادثة قد تصدر عنا تتجدد مع كل عاطفة جديدة، فهي تتبدل مع أحدث متعنا ومع آخر أوجاعنا. ومع هذا فإنها من القوة بـمكان حيث تُخلفُ فينا الذكريات الخفية التي تنمو حتى تشكل أحد أهم عناصر حياتنا: فالمعرفة التي لدينا من أنفسنا ؛ محتجبة ومتعارضة مع كل منطق، كل سعي وراءها، حتى ولو كان سعي العقل نفسه، ما إن يسك بها حتى تختفي فلا شيء محدد، حتى ذلك الذي يسمح لنا نحن بأن نتحدد. إنه نوع من القوة المستترة...

إن الأمر يبدو كما لو أننا فقط قد أخطأنا الفرصة لننجز في العالم الواقعي أحلامنا، ونحن نحفظ بالانطباعات المبهمة، لا لكي ننجزها، ولكن لتصور أننا كنا قادرين على فعل ذلك، فنحن نحس بتلك المقدرة في أنفسنا بنفس الطريقة التي يشعر بها الرياضي، الذي لا يفكر في قوته، لأنه يعرفها. وكالمثليين البائسين الذين لا يريدون التخلي عن أدوار البطولة. فنحن بالنسبة لأنفسنا كائنات راقدة داخلنا، اختلطت مع الإمكانيات الساذجة لأفعالنا، وأحلامنا.

وبالنسبة لهذه المعركة، المتزودة عبر الوعود والآمال في حياة إنسانية، بكل غنى الهديان، فإن كينونة تأبى الاتحناء: هي ذات إنسانية. وهذه الذات تعلق على أي مناقشة. إذا لم تكن أبدا موضع اعتبار، فذلك لأن التأملات التي كانت الأنا موضوعها في الغرب، ومنها تأملي، قد ارتبطت قبل كل شيء بديمومتها. إن الجميع يرتضون ضمنا بأنها، في اللحظة الراهنة، هي الشيء

المتميز بالعالم. أما الصينيين الذين تحدثت معهم في هذا الأمر فهم لا يقبلون أبدا بهذا الاختلاف ؛ وعليّ أن أعترف أنا أيضا بأنني لست متأثرا به. إنني ببعض القوة التي أريد بها الحصول على معرفتي بنفسي، أشعر أنني خاضع لسلسلة من الأحاسيس المضطربة التي لا أستطيع السيطرة عليها، والتي لا تعتمد إلا على خيالي وردود الأفعال التي يستدعيها. وبما أن الهاجس، الذي هو أيضا فعل، مدعوم بخيال غير فاعل يتكون من عمليات تعويضية لا إرادية. فإن لعبة العشق هنا: أن يكون الواحد نفسه والآخر، أن يعيش أحاسيسه هو الخاصة، وأن يتخيل أحاسيس الشريك. وفي السادية والمازوكية، حتى المشاعر التي تتطلب استعراضا، فإن البشر خاضعون لهذا الازدواج، الذي هو آخر وجه للقوى الكهلة للقدر المحتوم. إنها خاصية غريبة، خاصية افتراض الأحاسيس، واختبارها على هذا النحو، والأغرب من ذلك هو التمكن من لعبة كهذه. ولأن العقل يتواجد هنا: فإذا كنا نتفاعل، وقد تلبستنا هذه المشاعر، فهذا بتوجيه منه، فهي مثل الكشوف، من خصائصه سوء التقدير، ومن خصائصه أيضا دفاعنا الجمعي، وفكرة الأنا وإيعاز الاحتمالات.

هذا الدفاع ضد الإلحاح المستمر للعالم هو الصفة نفسها للعبقرية الأوربية، التي تعبر عن نفسها من خلال القناع الهيليني أو القناع المسيحي. فعندما يُسمي لاهوتيّ كاثوليكيّ إبليس «أمير العالم» يُخيلُ لي أنني أسمع صوت التماثيل الأثرية يصعد من البرونز الأسود. صفة، كما لو أنها لقبيلة في أراضينا المتشامخة، يصرخ هذا الصوت المتناوب للتعظيم وللأس، بإيمانها بحدود قدرات الإنسان، في ضرورتها كسبب لوجودها. صفة أيضا لجنس خاضع لبرهان الفعل، وموعود لذلك بأشد الأقدار دموية.

---

من لينغ إلى أ. د



باريس.

السيد العزيز،

لاشيء يمكنه، أفضل من هواجسنا أن يلتقي الضوء على الاختلاف الذي يفصل بين حساسياتنا. فإذا نحن حلمنا، فبالكاد لكي نطلب من أحلامنا الحكمة التي لا تعطينا لنا الحياة. الحكمة وليس المجد. «انفعالات الحلم» كتبت لي، وأجيبك: الهدوء في الحلم.

وما أن الصيني الذي يحلم يصير حكيماً. فإن أحلامه ليست مسكونة أبداً بالصور. فهو لا يرى مدناً مغزوة، ولا مجداً، ولا قوة؛ وإنما يحلم بإمكانية ظهور كل شيء بشكل فيه الكمال، فلا يتعلق حلمه بما هو يومي. وإذا كانت نفسه فظة إلى حد ما فهو يحلم ببعض الاحترام.

لاشيء يجعله ينحني أمام الفعل. إنه كذلك حتى في الحلم. فشعوره بأنه محترم. ليس أبداً في تخيله بأنه في قاعة تغص بالرؤوس المنحنية أمامه. بل هو في معرفة الأشياء الخاصة التي يضيفها له الاحترام الذي يستلهمه. وقد يبدو لكم من الغرائب التي لا تستطيعون تصورها، أن الصيني، إذا جاز لي القول، يحلم بغير صور. وهذا هو الذي يجعله مرتبطاً بالقيمة وليس

بالشخصية، بالحكمة وليس بالامبراطور. لذا فإن فكرة العالم الذي لن يذهب إلى تخيله، تعبر بالنسبة له عن حقيقة العالم.

إن لكم رداً من الدهر تعكفون فيه على إدراك وجودكم. وبعناية، عَنَوْنْتُمْ، وَصَنَّفْتُمْ، وَحَدَّدْتُمْ الشخصيات التي ظهرت أمامكم، وكذا شخصيتكم. ومسلحين بأحجار الصيد الحفيفة، وبغير عصي، وَحُتْمٌ -مع قصر النظر والحماسة- تبحثون عن اختلافكم عن الآخرين. إن هذه العناية التي بدلها فنانو القرن السادس عشر، في تأطير صورهم، وهي شيء أتذوقه، ملمح من ملامح روحكم. وأحياناً وأنا وحدي، أتصفح كتاباً من الكتب التي تقدرونها بعض التقدير، متناسياً مع الشمس التي عَزَّ طَلَابُهَا ذلك القلق الذي صار ملازماً لي، أجدني أتمتع بتسليات لطيفة من محاولتكم طرادَ الفرد. ومن الجهود التي تبذلونها للإمساك فيه بشيء محدد. ذلك لأنكم في محاولتكم العثور على أنفسكم، تفعلون ذلك على طريقة هؤلاء السحرة، الذين يجدون في أعقاب ندائهم على العفريت، أن الغرفة قد احتلَّتْ بأعداد لا تُحصى من الوجوه ذات القرون، فيُعْمَى عليهم، ويستيقظون بعد ذلك تحت أكوام الكتب. يعانون من الآلام العظيمة في الرأس. ليس لأن الكتب قد أصابتهم بجروح أثناء سقوطها عليهم. ولكن لتذكرهم بأن العفاريت قد تشاجرت وتضاربت أثناء تزاحمها، لأن كل واحد منها أراد أن يكون هو المعنى بالنداء ؛ وهو ما يغري هؤلاء السحرة البارعين بمواجهة الصعاب من جديد.

ونحن قد اجتهدنا على مر التاريخ ألا نقع تحت إغواء أو أسر هذا الوهم في أنفسنا. وإني أراك، ياسيدي تفكر في البوذية،

حيث أن الغرب يُسبغ على هذه الحالة أهمية غير قابلة للتفسير. وهنا لا يجب التفكير. فمعلمو البوذية لديهم أحيانا حالة من الصفاء مليئة بالتنوع والذكاء أثرت فيّ بأكثر مما أثرت في حالتكم، بما يجعلني أشعر نحوهم بكثير من الحماس المخلص. لكنهم يستقنون في نفس الدوائر التي تستقنون فيها. فالبحث والهروب كلاهما بلا إحساس. فأى إنسان يترك نفسه ليقادَ بواسطة العقل لن يحيا إلا له وعبره. ولا توجد زينة مشؤومة أكثر من هذه. إن ما نريده نحن هو ألا نحصل على الوعي بأنفسنا بوصفنا أفرادا. إن عمل العقل عندنا هو في التجريب على نحو مضيء لخصوصيتنا التفتتية والاستشفاف عبر هذه الحساسية للخصوصية المماثلة للكون، ليس على الطريقة التي يعيد بها حكماؤكم بناء الحيوانات المنقرضة انطلاقاً من بعض العظام، فنحن أقرب لأن نتصور هذه الحيوانات حية ترعى في مشاهد طبيعية ليجعلها مُقلّمة بتعريشات النبات العملاقة. ذلك لأن الجمال الفائق لحضارة طبيعية، هو رهافة لفطرية الأنا.

إن مبدأ العالم هذا والذي لا تعثرون عليه في أنفسكم، قد استبدلتموه بأبتية. أنتم تريدون عالما ملتحما. وبخلقتكم له، تستخلصون منه حساسية خاصة، مؤطرة بدقة بالغة. من ذا الذي قال إنها تدين لعقلكم؟ إن حساسيتنا نحن تتجاوزنا في كل أجزائها. والحالة التي تميز بشكل أساسي بعض حكمائنا عن حكماء الشعوب الأخرى، لا يعوزها الأخلاق أو الجمال حيث إن حساسيتهم، التي لا تعطف إلا على اكتمالها الخاص، تحقق جمالية بغير احتمالية للصراع، أما عن الأخلاق، فمن العبث فصلها عن الفنون الجميلة.

وصحيح أن بعض الغربيين قد تلهّوا، في كتب، بالانتقاص من قيمة فكرنا لصالح فكرهم. لكن الذين حاولوا حقا معرفة فكرنا، هؤلاء المزدريين للرموز ليجتهدوا على النحو الذي تفعله، الذين توجهوا إلينا، وفهموا سريعا أن عقلا بشريا يمكنه أن يعمل لغايات متنوعة، وأن اكتشاف العالم أمر مرغوب أكثر من غزو نظامه. قد تباعدت الأواصر شيئا فشيئا بينهم وبين نصائح التلال التوسكانية والحدائق الفرنسية.

لقد تنزهت، أنا أيضا في حدائقكم التي لا تضاهي والتي تختلط فيها التماثيل مع غروب الشمس بظلالها العظيمة الملكية أو الألوهية. إن أيديها المفتوحة تتراءى لك كأنها ترفع قربانا ثقيلاً من الذكريات والمجد. ولقد رغب قلبكم أن يتميز في وحدة هذه الظلال التي تتمدد بهدوء كشريرة عملت لدهر طويل. أه، أي فرع سيكون جديرا بأصله، ذلك الذي يبحث عن فكره الغابر، لا يعرف بعد سوى أن يبكي موتاه الكفار؟ وعلى الرغم من جبروته الواضح، فإن الغروب الأوربي محزن وفارغ، فارغ كنفس الغازي. ففي كل التصرفات الشديدة المأساوية للبشر، لم يظهر لي من بينها على الإطلاق، ما أشد مأساوية وأشد عبثا من ذلك الذي تسألون به ظلال أمجادكم. إن جنسا منذورا للقوة، هو جنس يائس...

ما أشد حاجتي إليك، يا كذات الجسد المقهور في الليل المتعب، يا فكريا غير بشري يتصاعد فوق وهج الحريق الهائل للعالم، ويا آسيا.

باريس.

السيد العزيز،

يوجد فينا معنى لا يبدو حتى أنك خمنت إمكانية وجوده: هو معنى الحيوانات الغريبة، الحيوانات المختلفة على نحو جوهري عن حيواناتنا. وهذا المعنى يتخلل فننا الشعبي وفنوننا التشكيلية إلى الحد الذي يتعسر فيه على أي كائن أن يفهم هذه الفنون بغير استنادٍ إلى هذا المعنى. إن العناية التي يراقب بها رسامونا ما يرغبون في رسمه لا تستطيع تفسير الأشكال التي أظهروها ؛ بما أننا نجد في الصور الرمزية الغزال أو الحصان على سبيل المثال، نفس الإحساس الذي يؤثر فينا في اللوحات التي تُقدَّم فيها هذه الحيوانات في حالة حركة والتي تبدو كما لو أنها استمدت ما بها من قدرة على الإمتاع من تأملٍ حاذق.

إن الحيوانات أو الموضوعات التي تُقدِّمها لك هذه الأعمال تُعدُّ على نحوٍ ممتعٍ باستلهاً من الحكايات. وإن كنتَ تجدني الآن كدرا، فإن ذلك بسبب المرض الغريب الذي سببه عندكم تطور في هذه الروح، التي حدثتكم عنها. فأنتم تبحثون بغير ابتسام، عن ميزات وعيوب الحيوانات ؛ فقد أغمطتم أحاسيس الكلب، وتشكَّيتم من نفاق القط، وفيما مضى، حدث أن لمحاكم، في

أوروبا، أرغمت على إخضاع الحيوانات للإدانة. لقد كان هذا العرفُ حسناً، ولن أقول كم أنا أسف لإقلاصكم عنه. فقد وجدتُ فيه رمزا، وقَدَّرتُ فيه ثابئةً، معنى النظام الذي ميزكم بين الأجناس ؛ وقد سرى ذلك عني كثيرا.

أنتم تعرفون حكاية الجمجمة، هذه الحكاية عندما يُرينا مؤلفها كيف أن الجمجمة الأدمية مهمة على حافة طريق عبر متابعته للعاير الذي دنسها، فهو لا يفعل سوى ما يفعله قاص غربي. لكنه عندما يعرض لنا، في الضوء الباهر للقمر الثلجي، هذه الكرة التي تندحرج، وتقفز، وتسقط وترتد، ولا تني تُزُجج العاير المرتعب، نشعر بأنه يفترض بأن لهذه الرأس حياة خاصة، متشكلة بشكلها الغريب عن الأشياء الإنسانية. وهنا تبدأ عوالم الخيال.

إن الحياة التي تجسدت في صورنا والتي جعلتك تعتقد أن فننا أحبُّ تصويرَ الفرد. جاءت، على العكس من إهمال الخواص الفردية. إن مبدأ النوع، الذي هو بالنسبة لكم مبدأ تجريدي للغاية، وسيلة للتصنيف الفردية. إن مبدأ النوع، الذي هو بالنسبة لكم مبدأ تجريدي للغاية، وسيلة للتصنيف؛ وطريقة للتعرف. وهذا المبدأ عندنا مرتبط بالحساسية، ففنون آسيا فقط هي التي ابتدعت الكاريكاتير للحيوانات .. وعندما أقارن فننا بفنكم، تدو لي حساسيتكم مبعثرة، وحساسيتنا مُنظمة تقريباً على النحو الذي تنتظم به أفكاركم. هل لك أن تتصور، وأنت المسيحي، أن يكون هناك إنسان لديه حساسية منظمة؟

عندما أقول: القط، فإن الذي يهيمن على عقلي في تلك

اللحظة ليس صورة القط ؛ وإنما بعض الحركات اللينة والصامتة التي تُميزُ القط. إنكم تميزون نوعاً من غيره من الأنواع عبر خطه التشريحي. وتمييز كهذا لا يستند إلا على الموت. (يقال أن رسامكم فيما مضى، كانوا يدرسون على الجثث تصميمات وتوزيعات الجسم الإنساني).

إن مبدأ النوع يتجسد في الضرورة التي تُوحّد بين الأشكال التي تتخذها الحياة في الكائنات التي تحتويها: أي ضرورة الحركات المعينة. وهذا هو السبب الذي يجعل هذه الضرورة لا تستطيع، بأكثر مما يستطيع الأسلوب، أن تتجسد في صورة ؛ فإذا أمكن للأسلوب أن يصل لهذه الغاية، فهو بسبب من إيعازها له. وهذا الإيعاز هو أعظم وسائل الفن، وتعبيره هو رمز النوع الحي، بمثل ما أن الخط التشريحي هو رمز للنوع الميت. إن فهم عالم الحيات المتوالية هو الفهم الذي يسبق كل فهم ؛ ومن خلال ذلك تكتشف العالم ألعاب الفنان. وهذا الموضوع يطبع على نحو عميق التعارض بين كشافنا وكشوفكم: فمن تماثلات بديهية تذهبون أنتم إلى تماثلات أشد غموضاً، ونحن نذهب إلى تنوعات غير قابلة للتوافق.

كل بعد الظهر قُضِيَتْه في مشاهدة لوحات اللوثر. وفي معاناة الطريقة الخرقاء التي جمعتها معاً، بحيث فضلت النظر لما هو خارج الشبابيك؛ هذا الربيع الخفيف الذي يمر على باريس يُبهجني. إن ضفاف السين تتشابه مع الصور المطبوعة على الحجر لرساميكم الرومانتيكيين؛ فهي مجيدة، ولطيفة، وبورجوازية في آنٍ معاً ؛ فالقصور هنا محاطة بتجار العصافير. ولم تجلب لي

متاحفكم أية متعة. فالفنانون الكبار مسجونون فيها ؛ وهم يتجادلون معاً. وهذا ليس دورهم، لا دورنا أن نسمع جدالهم. إنني دائماً مُحبّط من الأماكن التي تفضلون فيها إشباع ملكة الحكم على المتعة المرهفة الناتجة عن الفهم.

المتحف يعلم، للأسف! ما ينتظره الأجنبي من الجمال. إنه يُحرّض على المقارنة، ويُفضي، قبل كل شيء إلى إحساس باختلاف ما يقدمه، مع أي عمل جديد. إنه يسيطر على الحساسية التي يعرضها، ولقد حدّستُ، ببعض المرات، أن أحد أطفالنا قد تقوده الصدفة إلى معاناة مشاعر مماثلة فيه. فالانفعالات، والمقابلات غير المتوقعة للألوان، والأحلام الجمالية التي حلم بها أسلافي في رسوماتنا تصطبغنا حتى الموت مثل التخيلات التي تعطيها اللعب للأطفال ؛ وهي لا تتميز عنها سوى بالنوعية... فكم من عصور الحكمة أوصتنا بأن نجعل من خيالنا خادماً حاضراً وجديداً دائماً لحساسيتنا! وعلى حين تنتقل التعاسة التي لا تكفّ للغرب، والمنتصرة انتصار التحف المعروضة، من صالة لأخرى، يصعدُ القرين الشاب لنهر السين من المجرى سحابات من ضباب الحُور الملونة... وعلى حين أن طبيعة بلادكم، على ما يقال، تدفعكم للتأمل ؛ فإن طبيعة تعطف بأنفسنا نحو التعاسة أو الفرح. إن بعض الخيالات المجهولة فوق الجليد أو الخطوط الحمراء لجسر تستيقظ للحياة فجأة ؛ فتصبح هي الرسائل المتناغمة التي تجيء لتحدثنا عن أنفسنا. سواءً كان واقعياً أو متصوراً، ذلك الذي يوقظ حساسيتنا أ، و يتوافق معها، فإن مشهداً طبيعياً هو إحساسٌ مُتجَلِّ. وهذه الحدائق التي نغدها هي فيخاخ تقريباً. دلائل على مشاعرنا. لها علينا قدرةً طاغية،



وتحولاتها تبعث فينا الاضطراب العميق. إنني أتذكر الحديقة التي نَسَقَهَا واحدٌ من أجدادي في القرن التاسع عشر بالقرب من أموي بمساعدة بستاني وقد اختار أبواي للذهاب إلى هذا المكان، غسقَ يومٍ من أيام نهاية الصيف، الذي يتميز بنعومة شديدة، ويتنسمُ بالكمال، في هذا الإقليم. وقد وصلنا متأخرين. كان الظل الصاعد من الأرض يحو حدود الأشكال ؛ وبدا أن صفاء الحديقة، كأنما ظل ثابتاً لا يتغير، على طول القرون. شيئاً فشيئاً، بدأ سلامٌ وِرَعٌ يُغَطِّي المكان حتى هيمن تماماً على كل شيء، كما لو أنه يُداوي نقاء الحديقة الذي جُرِحَ بحضورنا. كانت الأشجار التي أحبها الجدود، تتمايل مع إيقاع الريح الساخنة، وتبدو كأنما تَرِنُ ملياً هذا المشهد الطبيعيّ بهذه الصخور الأرضية، وهذه البرك والروابي، على حَظِّ الأفقِ البحريّ المتأرجح.

مرَّ شعاعٌ بطيء واحد من تلك الشعاعات التي لاضوء لها تقريبا، الملونة بشكل صارخ، التي ترسلها الشمس عند غروبها، وتُحَلِّلُ جذوع الأشجار، أضاء بقتة جانباً من الحديقة، فَبَدَّتْ على البُعد بضع فيللاتٍ على الطراز الأوربي، كانت غير ظاهرة حتى هذه اللحظة. كانت الفوضى باديةً على أروقَتها وأشجارها الصغيرة، ودمرَ حضورُ هذه المنازل الغربية على هذا النحو بشكلٍ وحشي هذا الجمال الهادئ الذي أضنته السنوات التي تراءت ببالي وهي خجلة تماماً أمام حياته البطولية، آه يا مملكة الورد، أيا ما كان مجدك القديم ونبلُك ؛ توجد ساعةٌ لا يستطيع القلبُ فيها إخفاء الاجتياح الذي تجتاحينه له، وينزف... إنها ساعة الصمت المهلك.

ساعةً أعرِفُ أن لا نظيرَ لها، ساعةً وحدةً لا تعادلها ساعةٌ  
أخرى! في احتضار الآلهة مجتمعةً وجدتُ عاطفةً لم أتجرأ على  
طلبها من عزتها، كان الدمُ الذي يسيلُ على أجسادها يدمرها  
كأنها شعلٌ ويظهرها كأنها أضواءُ هذه الشعل... لقد أحببتُ  
صَوْرَها القتيلةَ بأكثر مما أحببت ذكراها، فموتها قد وصلني بها  
عاطفياً، والمراهق الذي كنته أتمكتهُ زمناً طويلاً الرائحةُ الطاغيةُ  
لدمها الأرضي.



باريس.

السيد العزيز،

تجد طبيّ هذه الرسالة صورةً فوتوغرافيةً لقناع أثري من البرونز. أرسلت إليّ من الصين، وأرسلها بدوري إليك. هذا القناع يعود لعهد أسرة هان، وهو عبارة عن عيينين وخطّ محفور يحدد الأنف. إنه يُذكر بالرعب، هو لا يبتعثه: وإنما يُذكر به فقط. فالفم الذي يُعبّر عن الأحاسيس في كل النحوت الغربية، ليس مصوراً بالمرّة في هذا القناع. إنك تعرف مثلي بجمال الصُور التي قامت بنحتها البوذية المشوشة بالفلسفة الإغريقية على سفوح جبالنا. ورغم السلام العقيدي الساكن في العيون المغمضة لهذه النحوت، فالصين الدنيوية والدينية معاً لم تكفّ خلال عشرة قرون، عن محو كل ما بها من إحياءات إنسانية، وإتلافها، وتحويلها إلى موضوعات للحلم ورموز ألوهية، بطريقة غير محسوسة، وعبر المحيط الثابت. إن أشكال كاتدرائياتكم قد اختفت بنفس الطريقة. هنا وهناك، ومثلما يتبعثر ضوء النهار الرقيق إلى نجوم، يتحطم الكمال اللامحدود للفن الملكيّ في ألف موضوع محدد. لكن هذا التبعثر، في الصين، هو التفتت المضىء والغريب للحلم؛ وهو في أوروبا، التبعثر في الرجل والمرأة، وفي ملذاتهما. ففوق القاعدة الخالية لتماثيل الحكماء، تجدون أنفسكم أنتم بذاتكم، ونحن نجد

أنفسنا محاطين بالوحوش الأليفة، علامة الحكمة.

إن استخدام الخواص الرمزية هو بالقطع ما يُعيقنا عن فصل الأفكار، بمثل ما فعلتم بهذه الحساسية التشكيلية التي هي لدينا مرتبطة دائماً بالأفكار. إن فننا التصويري، عندما يكون جميلاً، فهو لا يُقلد ولا يَصِف: إنه يومي. إن العصفور المرسوم هو إشارة خاصة للعصفور، ملك لمن يفهمونها وللرسام وهو كالعلامة المميزة: فالعصفور عندنا هو الرمز العام. وبإدراكي الآن لفنكم، فإن فننا يبدو لي كالغزو المتمهل، والمحدد للحلم والإحساس عبر الرمز.



---

من أ. د إلى لينغ

باريس.

السيد العزيز،

إن الذكاء المنظم على نحو مُحكّم، يهيمن بيسر على التعابير الإنسانية، لأنه يجبرها على ألا تكون سوى حُلِيّ لنظام القيم الذي أقامه. مجرد زخارف وروائح للفكر... وعلى الدوام تَجهدُ عقلية الغرب في إعطاء الأشياء التي تحصلت عليها من القيم طابعاً مرغوباً. وهذه العقلية بها نزوعٌ لغزو الزمن، وجعله أسيراً للبني الشكلية لكن هذا النزوع نفسه ليس سهلاً سوى في عالم تَمّ تنظيمه عبرها. فهي التي تتوج نفسها، وتحكّم بالإعدام على ما لا ينتظم معها.

إن الزمن يُفرحها اليوم، وهذا الشعور الجديد الذي نجده في الأفعال وفي المشاهد الطبيعية، هو الضرورة الملائمة لها. حيث نجد بنظرتنا السريعة لهذه الأفعال والمشاهد أنها قد أسبغت عليها ويمثل ما تُغيّر مياه البحر العميقة شيئاً فشيئاً من ملامح سكانها بما يقتضيه المشهد التصويري لمهرجاناتها البيولوجية، فإن حضارتنا، المتلبّسة في فنائنا، جعلتهم لا يستطيعون الإمساك بعالم لا يقبل إيقاعها الذي تشكلوا بها، وعندما أتذكر أحيانا، مناظر أشجار الليمون حيث تُوجّه الجبال طبقاتها المتوازية في

مثلث متعاكس مع السماء ؛ أو مناظركم الطبيعية في الجنوب،  
المتقنة كالرسوم. فإن فننا يبدو لي عندئذ كأنه فن أت من كوكب  
بعيد، وأواسي نفسي حين أستخلص من تركيبته متعة معقدة،  
على التعاسة الهائلة التي يمنحها لي اليقين، بأنه لا يوجد فن لا  
أستطيع فهمه.

إن الأوروبيين تعبون من أنفسهم، تعبون من فرديتهم  
المنهارة، تعبون من تعاليهم. ذلك أن ما يدعمهم هو بناء هش من  
المتناقضات، أكثر من كونه فكراً. إنهم قادرون على الفعل إلى حد  
التضحية، لكنهم مليئون بالتقزز إزاء إرادة الفعل التي تفتل  
جنسهم اليوم، ويريدون البحث وراء أعمال البشر عن سبب للوجود  
أكثر عمقاً، فدفاعاتهم تنهار تباعاً. وهم لا يريدون أن يختلقوا مع  
ما يتراءى لحساسيتهم، ولا يستطيعون بعد أن يتخلوا عن الفهم.  
والنزوع الذي يدفعهم إلى الفرار بأنفسهم، يأتي عندما يقدر  
أعمال الفن التي تأسرهم أفضل من غيرها. والفن هنا هو الحجة  
الأكثر رهافة: فنحن نعرف أن أكثر الفتن جلالاً، هي تلك الموقوفة  
على التمييزين. ولم يعد هناك عالم للخيال تم كشفه عبر الغزو، لا  
يسعى وراءه اليوم، في أوروبا، الفنانون القلقون. إن القصر  
المهجور الذي تهاجمه ربح الشتاء، وروحنا التي بدأت تتفتت شيئاً  
فشيئاً، ما فتىء ينشر حرباءاته الملونة. نعم، فمن يتأمل الأشكال  
الفنية التي توالى في أوروبا منذ عشرة أعوام ولا يرغب في  
الاجتهاد في الفهم مطبوع بالجنون، وهو جنون واع بذاته ومكتفٍ  
فهذه الأعمال، والمتعة التي تحملها، يمكن تدريسها كلغة أجنبية،  
ولكنها تُخفي عبر تواليها، كما يخمن البعض، قوة معذبة تسيطر  
على العقل تُغيّر بلا انقطاع بعض مظاهر العالم من خلال النظر

إليها بأعين جديدة. وهناك، في هذا البحث، مهارة حاذقة تتطلع نحو الإنسان بطريقة المندesh، فالأحلام التي تتلبسنا تستدعي أحلاماً جديدة في شكل تجرب به سحرها: نبات، لوحة أو كتاب، إن المتعة الخاصة التي يجدها البعض في اكتشاف الفنون المجهولة تتوقف عند الاكتشاف، ولا تتحول إلى حب. وعندما يجيء لنا، من الأشكال الأخرى التي تؤثر فينا، ما لا نحبه، نصبح كالمملوك المرضى يأتي لهم النهار بأجمل هدايا المملكة، ويعيدهم المساء لجشعهم الملازم واليأس...

إن التوعك الأوربي، هو ذلك الذي سببته الكشوف في العقول للأسف! بقليل من البراعة. هل تعرف بغزوة إسبانيا الجديدة؟ لكم يبدو صوت ساهاجون، وهو يجس في وقار، بين أسطر النص الإسباني، عندما يُقَصُّ أنه زار، عند دخوله المكسيك، في قصر الملك، «الحدائق التي لا تشبه في شيء ما يمكن أن تصنعه يد آدمية، ورأى، في القاعات السفلى، مجموعات من الشعابين والأقزام التعسة...». إن التعاسة التي أريكت الأب اللاتيني في أعين أقزام بلاد الهند الغربية قد عرفناها، وقهرتنا في الأعمال الأثرية، وفي الروائع التوسكانية، ثم في هذا اللوفر، حيث اللوحات التي جمّعها نابليون، تُريك بترتيبها على أساس تعاقبي فقط، الفنانين الأكثر أصالة من بين أصحابها. ومع ذلك فلم تكن أوروبا ولا كان الماضي هو الذي غزا فرنسا مع مطلع هذا القرن، لقد كان العالم بأسره، العالم بكل حاضره وكل ماضيه، وبكل قرايبه المتراكمة في أشكال حية أو ميتة أو تأملات، إن هذا العرض المرتبك الهائل الذي بدأ، هو يا صديقي العزديز، واحد من إغواءات الغرب.



كان في انتصار الأشكال على العقل شيءٌ أعمق من قوة المتعة، أو الإعلاء من شأن حساسية فظة إلى حد ما. فالمتعة الشهوانية، ومتعة البحث عن الجديد، تُقويان الأنفسَ الحقيرة بسهولة، ولكنهما تصبحان مجردتين من القوة أمام من تجهزوا لقتالهما. وفي الحقيقة، فإن ثقافة ما، لا تموت إلا بضعفها الخاص. ففي مواجهة المبادئ التي لا تستطيع استيعابها، يكون مقضياً عليها بأن تجدد في تدمير هذه المبادئ عنصرَ بعثها. أو الفناء. كذلك نرى في أوروبا كلها، مولدَ لعبة الخبرات الفنية المريرة في بعض الأحيان. بما أن كل ما أمكنت تجريبه عبر ثقافة ما له من العناصر ما لا يمكن أن تتوجد إلا عبر حضورها في الإنسان. إن البعض ممن يعطون الانطباع بأنهم أحاطوا بالأشكال والأفكار الشديدة الحركة، يعطون التأمل الثير لهذا الكون المتحرك قيمةً أعلى بكثيرٍ من القيمة التي يعطونها لإرادة تعيينه.

فضلا عن أنهم لا يستطيعون أن يجدوا صورتهم الخاصة إلا في هذا التأمل، وهم لذلك متطلعون، ولبعيدٍ...

ولكن لاشيء يستأهل العطف، قدر محاولاتهم الخشنة، والعنيفة، والقلقة للعثور على القيمة الضائعة. إن «أوريج دلفي» و«كوري بودور» و«تمائيل المسيح الرومانية» و«رؤوس سايت أو الخمير» والبوديساتفا (وي وتانج)، والفنون البدائية لكل البلاد، هذه الأعمال قد تم اصطفاؤها قبل كل شيء لإرادة التي تجعلها لا تُغوي إلا من يشعرون بها، كذلك بسبب معمارها الذي يلونه بالكاد الانفعال وهو المشترك بينها وبين ما نرغب في تسميته بالجمال. وهذا هو انتقام الروح في هذه الأعمال، فنهر الحياة يهدر

ففيها كنبع تحت أرضي، ولكنه يُسبغ عليها هذه الأشكال العظيمة  
والبسيطة التي تُمكنها، بعد ذلك، من التسلطِ على الأشكال  
الأخرى، وإخضاعها لتأثيراتها.

وحيث إن هذا العقل الذي يرفضُ الإقرار بحكم القيمة  
الواقعية، قد قادته قوته الذاتية لأن يعي حاجته إلى تأصيلية  
سلبية، مستندة بأكملها تقريباً على رُعبٍ واضح من الإغواء. فإن  
الفن الذي يرغبه، يحصل عليه بالعلاقة شبه الرياضية بين أجزائه،  
أكثر مما يحصل عليها بالرؤيا في عمل فني. وإن إشباع رغبة ما،  
لأهون بكثيرٍ من معاناة ثقافة هاجمت بلا توقفٍ لكي تُخضع  
القوى المعادية وحياتها نفسها، هي ألدُ خصومها.



---

من لينغ إلى أ. د

باريس.

السيد العزيز،

إن عالمنا ليس خاضعاً، مثل عالمكم، لقانون الأسباب والنتائج، أو، على وجه الدقة، هذا القانون، الذي نُسلم به، هو بلا فاعلية لدينا؛ فهو لا يقبل ما هو غير قابل للإثبات. فالحدث غير القابل للتفسير ليس بالنسبة لنا نتيجة لسبب مجهول إلا لأنه ينتج من حياة نُجهلها. ومن هنا القيمة التي نعتز بها للحساسية. والتقدير الذي نُكُنُّه لها وللمعرفة المتحصلة لدينا منها والتي تبدو لي متفوقة على نظيرتها لديكم.

ومع أنني لم أعد مؤمناً بتناسخ الأرواح. فإن حساسيتي تتماثل مع الحساسية التي كانت لأبي؛ ويقدر مافي خفياتنا من جاذبية، فيأني أتذوق منها ما ليس به صفة المحدودية، وما ليس واقعا تحت تأثير كل هذه العلاقات الجافة التي تفتلك حكمة لكي تحصل على اليقين بخصوصياتك.

ومن المؤكد، أن الفكرة العجوز لتناسخ الأرواح قد نَمَطَّت الحساسية الآسيوية، بمثل ما نمطت فكرة المسؤولية حساسية الغرب. ولكنكم تفهمون هذه الفكرة على نحوٍ سيء. لأنكم تترجمونها. فلا أحد منا ومنكم لا يعتقد بأنه كان في الوجود السابق على

وجوده هذه أو تلك من الشخصيات المجيدة، وللتعبير عن تفكيركم بدقة، فإنكم مرغمون على القول بأن الأمر يتطلب هنا، ما أو جسمانية مختلفة تنتقل فيها نفس واحدة. وهذا الإيضاح لا يعني بالنسبة لنا شيئاً، لأننا لا نستطيع القبولَ بخاصية الثبات التي تُسبغونها على ماتسمونه النفس. فنحن لا نستطيع أن نُرتب شخصيات عديدة في أعقاب الأخرى؛ ونحن كذلك لا نستطيع أن ندرك الشخصية. إن فكرة الوجود الفردي نفسها كانت إلى حد ما ضعيفةً عندنا، حتى الثورة، وكان الآباء يُعاقبون مع أطفالهم للأخطاء التي ارتكبوها في غفلتهم.

إن الأشكال المتعاقبة ما ليس بينها علاقة سوى تلك التي بين السحاب والنباتات التي تنمو على مطره. أنتم تعرفون أن المخلوق ليست لديه ذاكرةٌ لأي من حالاته السالفة. إنه من الصعب تحديد هذه الفكرة عبر المنطوقات الأوربية. ولكنني أستطيع القول على الأقل بأن ماتم ترجمته بعبارة «إنك ستولد ثانية يا ابن آوى» كان يمكن أن يكون أقل سوءاً إذا ترجم بعبارة «عند موتك، سيولد ابن آوى ما، من أفعالك». بما أن الأمر يقتضي هنا التعبير عن فكر الأجناس التي لا يعرف فيها ابن آوى أنه كان إنساناً، فلا يخضع سوى لقوانين الحيوانات، تلك التي يترتب عليها أن لا يكون المقدور موسوماً بالوعي الذي حصلت عليه الذات وإنما بالتغير الأدنى الذي تأتي به إلى العالم، وفضلاً عن ذلك، فأني أعتقد أنها التواجد عبر قدر غير بشري؛ ستضيع في هذه العجماوات وعذابات البشر. فالوحيدون القادرون على الوعي، لا بالأقدار الخاصة، وإنما بطبيعتها المشتركة، هم الحكماء الذين يدركون المطلق الذي يهيمن على الاضطرابات العيشية الأرضية. . وإنك

لواجدُ هنا البنية المتفردة للتفكير الشرقي، والمتماسكة أيضاً تماسك أي فلسفة غربية، والتي لا تتجمع خطوطها سوى في اللانهائي، مثلها في ذلك مثل تلك الحدائق بكشمير التي تشيّد مناظرها على ممراتٍ عظيمة مفتوحة على السماء وعلى جبال الثلج البعيدة...

إن المشاهد الطبيعية لبلاذكم لا تُشوّشُ أبداً فكرة جدارة الإنسان، العزيزة عليكم. فلا يوجد عرض الطبيعة الذي لا تستطيعون مقارنته بعمل إنساني. ففوة الجبال التي لا تستدعي الأحاسيس بالعظمة الهادئة، لا تعطيكم ما تعطيه الحركات غير المنتظمة لمخضرة تميل وتقوم، وتسقط مع اندفاعٍ مندفعٍ بسرعة هائلة نحو البحر، من إحساس بوجود قوة أعظم من قوى الإنسان. و أتحدث عن قوة إلهية. بل على النقيض فالخاصية اللابشرية غير المفهومة، نُبّت لهذه القوة التي تأسرننا عندما نعيها.

بين العقل الشرقي والعقل الغربي اجتهادٌ للتفكير، إني أو من أولاً بإدراك اختلافٍ في الاتجاه، أقول تقريباً في المسار. فالعقل الغربي يسعى لرسم خريطة للكون، بإعطائه صورةً سهلة الإدراك، بمعنى أنه يُقيم بين الأشياء المجهولة والأشياء المعروفة سلسلةً من العلاقات الحساسة بغرض فهم الأمور التي لازالت غامضةً للآن. وهو يرغبُ في إخضاع العالم، ويجد في فعله هذا قدراً أكبر من الاعتداد الذي يعتقد فيه لنفسه. وعالمه أسطورة متلاحمة. أما العقل الشرقي، فهو على النقيض، لا يسمح بإعطاء قيمة للإنسان في نفسه، ويتفنن في أن يجد في خلجات العالم الأفكار التي تسمح له بقطع الروابط الإنسانية. فالأول يرغبُ في

أن يحمل العالم إلى الإنسان، والثاني يقدم الإنسان قرباناً للعالم.

ولعلّ الذين يرون في تماثيل معبد اللاما مجموعة من العفاريات الغريبة لا يفهمونها بشكل يزيد سوءاً عن فهم حكمائكم، الذين تتضاءل أمامهم فكرة الرمز لتصبح مجرد حرائر مطرزة بالعلاقات السحرية أمام آلهة المعبد. إن الحياة هي المجال اللانهائي للممكنات. فالصنم المتعدد الأذرع، المسمى رقصة الموت، لا يُمثل كنيات عن العالم المتحول المتتابع بل هو تعبير عن الكائنات المتشربة بحياة لا بشرية، مما يجعل هذه الترخ ضرورية. ولا بد من تأملها كما تتأملون الحيوانات البحرية العملاقة ذات القشور الصلبة التي. يأتي بها صيد الأعماق البعيدة. فهذه وتلك تلبيلاننا وترباننا في أن معاً ما هو بسيط فينا وتلهمنا بفكرة الموجودات التي لا تربطننا بها أواصر شبه. لكن الأولى ليست سوى صور مسلحة بالرمل، بينما تُمثل الأخرى الشفعاء من أصحاب القدرات التي تفوق قدرات البشر.

إن إبداع صور الآلهة فن مقدس لذا فحالات التأمل الطويل للفنان، والحياة التقيّة، وزهد الصوامع، هي فقط الوسائل التي تمكنه من أن يستكشف في نفسه إحساساً غامضاً له من القوة ما يُجبره على أن يقدم شكلاً جديداً، هذا الشكل الذي تولد من افتتان معذب، والذي لا يقدم نظرية لمن سيشاهدونه، وإنما ارتباكاً خاصاً، انفعالاً أمام واحدة من قوة العالم.

أن أكتب فهذا رسم لانفعال ما، والذي يوقفكم عندما تحاولون فهمنا، أن الفكر والانفعال، بالنسبة لنا شيان غير منفصلين. إن الفكر متحد بحياتنا اتحاد الحب بحياتكم. وأنتم تعتقدون أنكم

ملكتم معرفةً للعالم بمظاهره وحيواته العديدة والمتميزة، بيد أنكم لم تجنوا سوى مرض فكركم الذي يحملكم على مثل هذا الإدراك. لقد ميزتم في الإنسان بعض الأحاسيس، وأسبابها المشتركة على نحو عام ؛ ولكنكم تعتقدون أنه يوجد فيما مضى إنسان، شيء من الديمومة غير متحقق. وحالكم في هذا شبيه بحال الحكماء الشديدي الجديدة الذين يلاحظون بدقة حركات الأسماك، ولكنهم لا يكتشفون أن هذه الأسماك تعيش في الماء.

بإزاء عالم مبعثر، فإن حاجتنا الأولى للعقل هي من أجل التمكن منه. ونحن لا نستطيع أن نمارس هذا على صوره، بما أننا حساسون أولاً لكونها عابرة، إننا نريد أن نفعل ذلك على إيقاعاته. ومعرفة العالم ليست في إقامة نظام، كما أن معرفة الحب لا تقوم على التحليل. بل في الحصول على وعيٍ حادٍ به. ففكرنا (عندما لا يكون في خدمة الممارك الدوجمائية) لا يتمثل كفكركم في كونه محصلة للمعرفة. ولكنه يتمثل في عملية التجهيز والتحضير لهذه المعرفة فأنتم تحللون ما جريتموه، ونحن نفكر لكي نجرب.

وبالنسبة لمفكر الشرق الأقصى، فإن معرفة واحدة هي الجديدة بالاكتساب، وهي معرفة الكون، وهو يجتهد ليخلق في نفسه، بحسب القواعد المعمول بها، حالات فكر وحساسية تستمر في التجذّر عميقاً على نحو تبادلي ؛ لتنحو نحو أصلها. في توجهٍ خاص لتفضي إلى إعطاء نظرات العقل المفترضة، خاصة لليقين.

إن العالم هو النتيجة للتضاد بين إيقاعين يتخللان كل الموجودات. وتوازن هذين الإيقاعين المطلق هو العدم ؛ وكل خلق



يجيءُ من تمزق هذا التوازن، ليس بُكنته إلا أن يكون اختلافاً. وهذان الإيقاعات ليس لهما من تحققٍ سوى بالمعيار الذي يستخدم في التعبير الإنساني عن التعارض، بدءاً من التعارض بين الذكر والأنثى حتى التعارض بين أفكار الديمومة وأفكار التحول.

ونحن لدينا بالطبع الشعورُ بالكون مثلما لديكم الشعور بالوطن، ولدينا حالات الحساسية التي تعينه، والتي لا تختلف إلا في أن تقدسنا للكون ليس قائماً على اختيار وكما تعطون للشعور بالوطن هيكلًا تاريخياً، فإن مفكرنا متلبسون بمذهب. وهؤلاء التايويون يقولون بالإيقاعات، كما يقول مفكروكم بالأبنية. ونظريتهم هذه تعلمهم ألا يروا في الأشكال إلا أشياء تافهة، ولدت بالأمس الآن ميتة تقريباً، متشابهة في هذا مع الأمواج في الأنهار الأزلية.

من ثم، فهم يقومون بفعلٍ من شأنه أن يعمل على إفقادهم الوعي، وأن يعطي لحساسيتهم حالةً فائقة الحدة، هذا الفعل الذي يتمثل في تنظيمهم لتنفسهم بطريقة خاصة، أو أحياناً يتمثل في تحديقهم بمرآة لفترة زمنية طويلة. وعبر هذا التركيز، تمنحي الصور التي ارتبطت لديهم في مبدأ الأمر بالتحديق أو التأمل؛ فلا يبقى في أنفسهم سوى فكرة الإيقاع، وهي المرتبطة بالقوة المعبودة، وهنا، تتصاعد معاً، الفكرة والعبادة، حتى فقد كلٍ وعي. وهذا هو الاتحاد مع المبدأ، ذلك الاتحاد الذي لا توجد وحدة الإيقاع إلا فيه.

---

من أ. د إلى لينغ

كانتون.

صديقي العزيز،

للأسف كل ذلك يبدو لي متعسفاً، كتعسف أسوأ النظم،  
وكتعسف أكثر فلسفاتنا زيفاً. إنني أرى الجهود التي تبذلونها  
لكي لاتفصلوا، يمثل مانفعل، بين الفكر والعالم، حتى تجنوا ماهو  
أكثر من السرور المتعالي الذي يحمله الغرب. (إن التحكم في  
التنفس، الأمر الذي يحتج ضده على نحو دارج، الأوربيون الذين  
تعرفهم، يستوقفني قليلا، فقط فيما إذا كان ذلك من أفعال  
السحر السفلي). وأعلم أن مشاعركم أكثر حساسية من مشاعرنا  
في الإحاطة بالموضوعات اللاشخصية: إنكم تحنون على الأسلاف،  
سواء كانوا أحياء أم موتى بأكثر مما تحنون على نساتكم ؛  
فالتعليم الذي تتلقونه ينصب على تقوية حساسياتكم التي  
تتطلب التجريد، والتجريد يمكنكم من جلاء حواسكم، وكذا  
استخلاص كيائها النقي بشكل أسطع مما تتحقق به بواسطة النساء  
أو الذهب أو السيطرة.

إنني أجد في أصل سعيكم هذا فعلاً إيمانياً. لا يتمثل في  
وجود المبدأ؛ وإنما في القيمة التي تُسبغونها عليه. ففي لحظة  
بلوغ شدة الوجد، لا يتحقق المفكر في المطلق كما يعلم حكماؤكم ؛

فهم يطلقون تسمية المطلق على النقطة القصوى لحساسيته. ومن واقع برهان فلاسفتكم: فإن حالات شدة الوجد المتماثلة، بما أنها جميعاً تبدأ من حيث ينتهي العالم، تبدو لي باطلة، كما أن النتائج المترتبة عليها باطلة أيضاً. فليس هناك تماثل سوى بين الأشياء المحددة؛ أما غير المحدد فلا يتماثل أبداً مع نفسه، وإنما هو خارج عالم المتماثلات. فالأمر لا يتطلب هنا سوى فقد الوعي بطريقة ما. يقولون لي «إن ذلك هو العثور على الوعي نفسه، يوصل النفس بالعالم» وقد رغبتُ في أن أرد «بأن وعياً ما، هو بالضرورة فكرة...» أما أجمل رؤى الموت فليست سوى حُلٍ للضعف...

إن ما يشغلني -في كل هذا- الأهمية المعطاة في هذه الحركات لكون الحساسية لا تدين إلا لنفسها ضمن تجاركم، وبين ظهرانينا، نحن الغربيين، أرى من البشر من توصلوا لتحديدات للحياة؛ وأشك في أن نكون جميعاً مدينين لهم. إن لي على وجه التقريب عامين أراقب فيهما الصين، وما تغير في نفسي أولاً هو الفكرة الغربية عن الإنسان. فلم يعد بمقدوري أن أستوعب أن الإنسان مستقل عن طاقاته الكامنة. ويكفي أن نقرأ معالجة نفسية لشعركم أن أفكارنا العامة والأكثر ذبوعاً يبدو زيفها عندما نستخدمها لفهم أفعالنا. فقيمتها تتلاشى بقدر ما يتقدم بحثنا، ودائماً نصطدم باللامفهوم، بالعبث، أي بالنقطة القصوى لما هو خاص.

ألا يكون مفتاح هذا البعث في الطاقة الكامنة المختلفة دائماً والتي تُرادف الحياة؟ لقد تأثرت هذه الطاقة بحياتنا الإرادية،

المعروفة، وحياتنا الخفية، وامتدت بفعل التوهّمات، والأحاسيس السرية إلى الحرية المطلقة. فأن يحلم رجلٌ بأن يكون ملكاً، أو عاشقاً سعيداً، هذا لا يُغيّر من شيء في تصرفاته اليومية، لكن الحب، والغضب، كعاطفة أو كصدمة يجعلانه يفقد السيطرة على نفسه: ما لو أن تصرفات الآخرين تدوي داخله بالقوة أو الضعف؛ بحسب حالة ابتهاجه أو اكتنابه... إن قرّر هو اقتراح الموت... لكن هذا الاقتراح مقبول من البعض في لحظة ما... والحب، والحب الذي يجب فصله عن امتلاك امرأة، الحب المتبادل، ألا يعدو هو الآخر أن يكون غاية غريبة، تُحلّق فيها الحساسية فوق أفعالنا وإرادتنا، لتمرح وتضيق بفرحها، وفجأة تغادرنا، كما لو أنها شَبَعَتْ من عواطفنا، التي لم يعد باستطاعتنا احتمالها؟ بما أن تحوّرنا بذاتها مضمونٌ بأكثر من تحوّرنا بالأحداث. إن الحياة الباطنة هي انتصار اللائقين، وسعي محتوم بلا هواده استرجاع صدفة فريدة.



---

من لينغ إلى أ. د

باريس.

السيد العزيز،

عجبا، مَنْ الذي فكّر في إنكار أن كل هذا يتأسس على ما أسميته فعلاً إيمانياً؟ هذا الفعل الذي هو، العَسْفُ عَيْنُهُ كما تقول. وهذا حقيقي ما هو إذن الذي يسمح لكم بالعيش مع البشر الآخرين، وفهمهم؟ وهل لأنكم تُقيمون اعتباراً مَشُوباً ببعض الريبة لحضارتكم، تعتقدون بأنكم قد سَلِمْتُمْ من موتاكم، وحاجاتكم، وهذه الصدفة المأسوية التي تقبع في عمق حياتكم؟ إن خطابي، فضلا عن هذه الأسئلة لا يهدف إلا لأن يُريكَ طريقاً، وآخره. إن حركات الحساسية تهمني عندما أكتب لك، كذا بعض الخلافات المتعلقة بشكل خاص، كما يليق، بما يستبد بكل الوجود الإنساني.

إن المعرفة التي تحصَلتُ عليها شيئاً فشيئاً بالأوربيين تدفعني الآن أكتب لك هذه الكلمات، بقدر ما تُعطيني رسالتكَ الفرصة لذلك. فالجِدَّة التي خَلَقَهَا فيكم لأفكار يبدو لي اليوم أنها هي التي تفسرَ حياتكم بأكثر مما تفسرها الأفكار نفسها. لقد كانت الحقيقة المطلقة بالنسبة لكم هي الله، ومن بعده الإنسان، لكن الإنسان قد مات، بعد الله، وأنتم تبحثون بقلق عن

تستطيعون أن تعهدوا إليه بإرثه الغريب. ومحاولاتكم المتواضعة  
لبناء عديمات معتدلة لا يبدو لي أنها ستعمر طويلاً...

أي وعي يمكنكم الحصول عليه بهذا الكون مما تسمونه الواقع؟  
إن هذا هو الخلاف. فالوعي الشامل بالعالم يتلخّصُ في: مُت،  
وسوف تفهم كل شيء. لكن الوعي الذي لديكم وعي منظم،  
وبالنتيجة، فهو عقل دعامة فقيرة، وخيال في ماء راكد... إن  
تاريخ الحياة النفسية للأوروبيين، بأوروبا الجديدة هو تاريخ غزو  
العقل بواسطة الأحاسيس التي تنشر فوضى حداثتها المتساوية لذا  
فرؤية كل هؤلاء البشر الساعين لتمكين الإنسان بما يسمح لهم بقهر  
الفكر وبالعيش، بينما العالم الذي يتسلطن عليه هذا الإنسان  
يصبح، يوماً عن يوم، أكثر اغتراباً، هي بالقطع آخر الرؤى التي  
سأحملها معي للغرب.





---

من أ. د إلى لينغ

شنغهاي.

صديقي العزيز،

لقد رأيتُ وانج لو. منذ زمن طويل وهو يشغل فكري.  
فالحالة التي كان عليها في عنفوانه. وتعاليمه السرية، والاحترام  
الذي يحيط به. يعطون الانطباع بحياة حافلة، عميقة وجميلة.  
ولكن لمعرفتي بحقده على البيض لم أسع لقاته كان هو قد رغب  
في الحديث معي ؛ وكنت سعيدا بذلك.

كان يقطن بفندق أستور. وقد استقبلني في حجرة واسعة  
المجلزية الطراز، وهو عجوز طويل القامة. حليق الشعر واللحية.  
أسنانه طويلة، وفكّه واضح، كان من الهزال بحيث أن عينيه  
المختفيتين، خلف العينات التي تحميها، بدتا كبيرتين سوداوين  
يفصلها أنفه القصير. رأس ميت، وعيونات صدّفية، وجلاءً  
عظيم.

بادرني هو بالسؤال. كان ينتظر مني بعض الإيضاحات التي  
تُشفي أحقادَه حول أوروبا ؛ وعندما عرج الحديث بنا إلى الصين،  
قال لي: « لا يهم هؤلاء المتوحشين المسلحين بالسيف، ولا هؤلاء  
الملايين من العامة الذين صار هاجس الخوف من الطعن، بل لا يهم  
حتى هؤلاء الحمقى المسممين بالبلاغات الجامعية، إن حالة صفة

عقولنا التي غزتها أوروبا وجملتها تَقْنَطُ في آنٍ معاً هي الشيء الذي له الأهمية اليوم في الصين».

كانت هذه هي المرة الثالثة التي شعرتُ فيها من خلال أقواله، أن الصفة الروحية هي الوحيدة الجديرة بالاحترام عنده. وفي هذه النقطة وجدتهُ صينياً خالصاً. فضلاً عن لطف استقباله، الذي على حُلُوهُ من المودة لم يهبط بمستوى الرقي، فصوته الهادىء وحركاته المنضبطة (كان ظفر إصبعه الصغير طويلاً بغير قَصِّ) يعطون انطباعاً بثقافة أكبر بكثير من ثقافة أي مَن رأيتهم في أوروبا. كان يبدو كما لو كان منحدرًا من جنسٍ آخر غير هؤلاء الصينيين الذين يشاهدهم المرءُ يُكثرون من الحركات والذين يسمعونهم يَصْحَبُون في الأحياء التجارية. كان سر جاذبيته وقوته يكمن بالقطع في التناقض بين الصور الغربية لعباراته التنبؤية، وبين هدوء أقواله الذي يتعارض مع ابتسامته، تلك الابتسامة الغربية التي لم تكن جذلة ولا ساخرة.

«إن الذي نراه هو استعراض لقوة خاصة، مسرح للقلق. إنه التدمير، والسحق لأعظم النظم الإنسانية، لنظام تَمَكَّن من الحياة بغير اعتماد لا على الآلهة ولا على البشر. نعم إنه السحقُ فالصينُ يتمُّ إفراغها كبنائيةٍ خَرِيَّة، والقلق لا يأتي من اللايقين ولا من المعارك، وإنما من وزن هذا السقف الذي يهتز...

«إن الكونفوشية تتفتت، لذا فهذه البلاد كلها ستُدَمَّر. فكل هؤلاء البشر يتعاضدون عليها. لقد صاغت حساسيتهم، وفكرهم وإرادتهم. وأعطتهم شعور الانتماء. وشكلت ملامح سعادتهم.

«إن بداية الخراب تُحدّد طابعَ هذا الذي مازال بعد في بدايته.  
ما الذي سعوا وراءه خلال ألفين وخمسمائة من السنين ؛ تمثّل  
مُحكّم لعالم بواسطة الإنسان ؛ وبما أن حياتهم كانت عمليةً أسرٍ  
مُتمهّل للعالم، فقد أرادوا أن يكونوا هم الوعي المتفتت...  
فالكمال الذي ينشدونه، توافق مع القوى التي وعوا بها،  
وكذلك...»

ولم أفهم ما أعقبَ ذلك من كلمات فقلت له... «إن هذا الذي  
يتعارض مع ما تسميه الذاتية ؛ أي خاصيّة التفكيك ؛ أو على  
الأرجح، رفض كل بناء للعقل. هذا الذي يكتسب تجده عبر رغبة  
إعطاء كل شيء قيمته العليا من خلال الوعي الذي تحصلّ عليه  
البعض... فكر كهذا يحمل في ذاته أسبابَ مرضه التي تتلخّصُ  
في ازدراء القوة. والصين، التي كانت فيما مضى زائدةً غليظة،  
تبحثُ اليوم عن القوة، وتحمل إليها ذكاء كل شبابها، كقربانٍ لآلهةٍ  
شريرة.

«إن العالم لن يعثر أبداً على الأعمال الفنية التي صاغتها،  
فيما مضى، حساسيتنا. إنها التعبير عن أرستقراطية الثقافة وعن  
البحث عن الحكمة والجمال، اللذين هما وجهي العبقرية  
المحتجبة... أنظر الآن إلى حطامها المحزن وهو يتجرجر على  
الأرض مع لافتات الدعاية، لنادي أنغو عن أخطأ الاجتماعات  
السياسية...»

«إن الجديرين بماضي الصين بيننا قد اختلفوا واحدا وراء  
الآخر، ولا أحد يفهم بعد، ومأساتنا ليست في وجود هؤلاء  
المهرجين الدمويين الذين يحكمونها، وليست كذلك في أبراج الموت

التي نراها كل مساء. فإذا ما انفتحت امبراطورية السهول الحمراء كحيوان متوحش جريح، ماذا ستحمل هذه الألعاب إلى التاريخ؟»  
كان يتحدث طيلة الوقت بهدوء، وبغير ابتهاج، وهو يبتسم.

«إن مأساة أخطرُ مع ذلك تحدث هنا: فروحنا تفرغ شيئاً فشيئاً... إن أوروبا تتصور أنها تمكنت من كل هؤلاء الشباب الصغار الذين يرتدون ثيابها. وهم يكرهونها. إنهم ينتظرون منها ما يسميه الناس من الشعب أسرارها: أي وسائل الدفاع ضدها. ولكنها حلت فيهم بغير أن تقويهم، ولن تصل إلا إلى أن تُشعرهم -كما تُشعرهم قوتها- بعدمية كل الفكر.

«للأسف، نحن نفهم؛ وليس بمقدورنا أبداً أن نطابق كوننا اللامحدود، المشغول باللانهاشي، بعالمكم الاستعاري، لأن ما سيتولد عن مجابهتهما، هو أشبه بعفريت متوحش لا يعبأ بشيء، وهو التسلطن الأعلى للاستبداد...»

وتوقف عن الحديث متردداً، واتجه بصره صوب ضوء النافذة، وغاب. وحل صمت. في أعقاب ذلك، وفي إلماعٍ لأهمية توجه الكثير من الشباب الآسيوي إلى التاوية، قال بصوتٍ وقور:

«إن الفكر الصيني القديم يتلبسهم بأكثر مما يؤمنون هم به. إن الحماس الذي يدفعهم نحو التاوية لا يعدو أن يكون حماساً لتحقيق رغباتهم، في الحصول على قوة أكبر... واللايقين الروحي في العالم كله يُعيد الشباب فضلاً عن ذلك إلى المذاهب القديمة: البوذية التحديثية في بيرمانيا وسيلان، والغاندية ببلاد الهند، والكاثوليكية الجديدة في أوروبا، والتاوية هنا... لكن التاوية،

وهي تعلمهم بوجود لإيقاعات، وتأخذ بيدهم للبحث عن الإيقاعات الكونية في خطوط الفضائل بكتاب تاوتي كنج<sup>(\*)</sup>، تساعد على فك أواصر ارتباطهم بثقافة تستمد قوتها من أنها أضافت إلى خلاق الإنسانية الثابتة إمكانية الرغبة... فلم تزرع فيهم بالضرورة سوى شراسة متعة الهدم. لقد استثيروا بحياة ويفكر أوروبيين ليس فيهما ما يعرضانه سوى سخفهما البالغ: اخترع، راكم النقود أو وحد الأراضي، قُم بالأبحاث النفسية عديمة الجدوى أو قُم بعمل الاستعارات لتفسير العالم. كل هذا عبث. بالقطع عبث. إننا لا نستطيع الاهتمام بأنفسنا، هل تفهم؟ هل تستطيع فهم هذا، أيها الأوربي؟ فهذه العروض التي تدور الآن فينا أو أمامنا، ما الذي بمقدوره أن تجلبه لنا سوى الاسمئزاز والبؤس؟...»

وتوقفتُ ابتسامته، ومال بجسده ناحيتي، كانت يده المفرودتان على المائدة ترتجفان بعض الشيء، وتلكت صوته الهادىء نبرة متحسرة. ولكنه عاود الحديث. وعادت البسمة تكدر ملامح وجهه. بينما كان يصحبنى:

«تاريخ عيدنا القومي، كنت أرجو ألا يكون هو المناسبة السنوية لذكرى ثورة أطفالنا المرضى بفكركم، ولكن لذكرى ذلك المساء الذي قرّ فيه الجنود الأذكياء بالجيش المتحد، وهم يحملون باحتراس الأتعب الميكانيكية النفيسة التي صنعتها عشرة قرون قريانا لامبراطورية، في الوقت الذي حطموا فيه الآلىء وجفوا أحدىتهم بمعاطف بلاط الملوك دافعي الجزية...»

---

(\*) تاوتي كنج: كتاب «الطريق والفضيلة» للاوتسي

بوصولي أمام المصعد، التفت ورائي، كان إطار الباب الذي يحيطه قد أحاله إلى ظلٍ في الضوء. كانت يداه منطقتين على بعضهما. وبما أنهما ارتجفتا ثانية، خُيِّلَ لي أثناء نزولي، أن هذا يعود إلى الشؤم الناتج عن كونه أهاج احترام لحظات التحية القصيرة الذي اقتضته طقوس الماضي.



---

من لينغ إلى أ. د



السيد العزيز،

قرأت لعدة مرات الرسالة التي تَقُصُّ فيها لقاءك مع وانج-  
لو، كانت نوافذي مفتوحة، وقد دخل الهواء البارد غرفتي بصحبة  
شمس الساعة الخامسة والهمهمات الهادئة للمدينة. فخرجتُ،  
تتعقبي التعاسة والقلق من كلام الرجل العجوز، والآن، مع حلول  
الليل، أكتب لك، مفضلاً أن أحدثك عن هذه الأشياء عن أن  
أحدثَ بها نفسي.

إنه يُعتَقَد بأن الصين تحتضر. وأنا أيضاً أعتقد ذلك. إن  
الصين التي أحاطت بشبابه، بفننها، ورفعته، وحضارتها التي  
صبت كل اهتمامها على الأحاسيس، بحدائقها وابتسائها لنهاية  
العالم، قد ماتت اليوم تقريباً. ويعودتها لقعقات البرونز الأخضر،  
فإن صينَ الشمال مُتَحَفٌ دمويٌّ كبير، ولا يحتفظ الزمن حتى  
بابتسامة ساخرة لكل هؤلاء القادة العسكريين الذين لم يعد لهم  
سوى مطاردة ظلالهم على القمم وفي الصحارى المغطاة بالهياكل  
العظمية والمسكونة بالقوارض. إن مقاطعات المركز والجنوب تُذعنُ  
كليّةً لهذه الحكومة الغربية لكانتون التي تقبض على زمامها  
المجلترة، وتكرم الحكماء بتنظيم دعايتهم بواسطة السينماوغراف ؛

وبما أن ما تمكنتنا من أخذه من الغرب هو الأشكال، فالسينما توغراف، وضوء الكهرياء، والمرايا، والفونوغراف، قد جذبتنا كما لو أننا نوع جديد من الحيوانات الأليفة. فبالنسبة لسكان المدن، لا تعني أوروبا أكثر من جنّي ميكانيكيّ.

لم تعد هناك صينٌ، هناك نُحَبٌ صينية، ولم تعد النخبة العارفة مقدّرة إلا بوصفها شيئاً أثريا أما النخبة الجديدة، نخبة هؤلاء البشر الذين استوعبوا الثقافة الغربية فهي مختلفة عن الأولى بشكلٍ يُجبرنا على التفكير بأن الغزو الحقيقيّ للامبراطورية بواسطة أوروبا قد بدأ.. فلم تعد الهزائم بعد، بل الانتصارات الصينية، هي التي تؤثر بدمار ماضينا. وهذا الدمار لا يمكن تداركه، بما أن أرستقراطية عقلية جديدة - هي الوحيدة التي لم تقبل بها أبداً في الماضي - تتكون الآن: فطلاب الجامعات لهم اليوم نفس المكانة التي كانت للعارفين فيما مضى فهم محاطون بالاحترام الصامت الذي كان لهؤلاء من قبلُ إن وجود هذه النخبة الجديدة، والقيمة المعترف لها بها شاهدان على تَغْيَرٍ في الثقافة الصينية يعد لتحول شامل. لقد كانت خيارات حضارتنا فيما مضى تنصبُّ على الشيخوخة، فعبر الشيخوخة ولها قامت هذه الحضارة: كان المتقدمون للامتحانات الهامة يبلغون سن الأربعين؛ أما اليوم، فهم يبلغون بالكاد سن الخامسة والعشرين. لقد بدأت الصين تحترمُ قيمة شبابها، أو على وجه الدقة قوته. وبما أن حيوات البشر جميعاً تنعطف اليوم بواسطة الشباب يجب الأخذ سريعاً بيد حضارتنا لتلحَقَ بالركب، فعندما تنكسر مقدمات الجونكات المنحوتة، يتم توجيهها بواسطة البحارة الشباب. إن روح الصين التي ولدتْ لابدَّ بالقطع من البحث عنها في أجزاء هذه المركبة

العجوز الرائعة والتي مازالت حيةً تُغوي الشبابَ. فعلى الأقل، عندما تتماسك بشكلٍ ما هذه الثقافة التي نراها اليوم تضعفُ، فسوف تحتفظ مجدداً بذلك الجمال الفائق للثقافات الميتة التي تستدعيها ويُرَبِّئُها النهضاتُ...

إن أقوال وانج -لويشويها الغموض. وإنني أعتقد أنها ليست الكونفوشية التي يأسف على انقراضها، وإنما هو يأسف فقط على إمكانات الكمال التي كانت بها. فلقد توصلتُ لأن تفتح لدى بعض الناس أحاسيس وبصيصاً من الشفافية المؤثرة ؛ فهذه المعجزات الرفيعة، وبلوغ حالة المطلق لدى التاويين هي أمور قد تحققت لقلّة من الناس. فالكونفوشية، وبشكل خاص، أخلاقها، لم تتطور أبداً استناداً إلى عقيدة، ولا باتباع نهج عقيدي. إن الأخلاق المسيحية مرتبطة ببعض الشطحات العميقة للقلوب المسيحية ؛ أما الأخلاق الكونفوشية فهي أخلاق اجتماعية، وفضلها تكونت كما ترى، الميزات والعيوب الاجتماعية لبني جنسي فمقدرة مواطني في الحصول على وعيهم من حالتهم الاجتماعية أكبر من مقدرتهم في الحصول عليه من فرديتهم. إن مثل هذه الأخلاق، الجمالية بالنسبة للنفوس المثقفة، والجبرية بالنسبة للآخرين، لن تثقل على حساسياتنا كما يثقل ظل الصليب على حساسياتكم، وإنما ستظل في وعينا كحزمةٍ مفتتة من القوانين القديمة.

إن أكثر ما يُشير انفعالي، في حديثنا، هي الجُمَل التي عرض بها وانج -لوي حالتنا العقلية التي لم يتمّ فيها إحلال شيءٍ آخر محل ما تم تدميره. فهذا القلق، وهذا المقت الذي يُكنّه بنو جنسي للأوروبيين، قد خَبِرْتُهُ أنا شخصياً، وإنني أجده في كل الرسائل

التي تصلني من الصين. فشابنا يعرفون أن الثقافة الأوروبية ضرورية لهم ؛ ولكنهم أيضا مُتشرّبون بثقافتهم الخاصة بالقدر الكافي لجعلهم يحتقرون الثقافة الأوروبية. وهم قد اعتقدوا أن بإمكانهم بسهولة أن يتحصلوا عليها ويظلوا صينيين، فحاضرة لا تهتم بالأحاسيس، ولا تدركها، يمكن في اعتقادهم، معرفتها بغير خطر يعدو خطر معرفة لغة أجنبية... وقد يكون لأرواحهم المعذبة التي تبدو اليوم تحت سيطرة الحقد والكراهية والتي تواصل النظر بإكبارٍ لجنسها، أن تتصل يوما الى الاتحاد مع فكر عظيم أو حَدَثٍ صيني عظيم... فمن قُدِّرَ عليه منهم أن يَفْرَ إلى الغرب قُضِيَ عليه أن يكتفي بفراقهم أما هذه الأحاسيس الأوروبية، الشجاعة العسكرية، وحالة ديناميكية الشباب الكانتوني، وحب النساء والحزن الذي لبشعرنا الحديث. فهي تعبير عن طاقة وحب فارغين...

كيف يمكن التعبير عن حالة نفسٍ تنفتت؟ إن كل الرسائل التي أتسلّمها تأتيني من شبابٍ هم أيضاً منبوذون مثل وانج -لو أو مثلي، مسلوخون من ثقافتهم وضجرون من ثقافتكم... لقد تولّد فيهم الفرد، وتولد معه فيهم ذلك الميل الغريب للتدمير والفوضوية، الخالي من العاطفة، الذي يشبه حالة التبديد القصوى الناتجة عن الريبة إذا لم تكن ضرورة الهرب قد تسلطنت في كل هذه القلوب الأسيرة، وإذا لم يكن شحوب الحرائق الهائلة قد لمع في أعينهم. آه، كم هو عسير عليكم الإتيان إلينا بروح آسيوية. فمركب أوروبا الطويل. يحفه حاملون بيض، ومركبات محملة بكل معية الموت! إن مجوس الإنجيل، سفراء لدى أباطرة مونغرليا، فأني بؤس تحمله قوافلكم! «لقد جئت إليك يامليكتي بكل ما تشتهي

نفسك لكي تموتي»

إن رغبة التبرير التي تجدها في كل نُظْمنا الاجتماعية قد أضعفت هذه النظم ؛ ولكن، تحت كل الأشكال المعروضة للحكومة، وتحت كل مساعي السعادة التي تهزأ بها السخرية المزعجة للقرانن. ترمجر قوة لن يتمكن شيء تقريباً أن يخفيها، ولن تظهر إلا كجيش؛ إنها الرغبة في التدمير... فالظلم هو الأمر الذي يعي به الملايين من تعسائنا، وليس العدل. المكابدة، وليست السعادة والنفور الذي يكونونه لزعمائهم يساعدهم على فهم ما يوحدهم هم. إنني أنتظر ببعض الفضول هذا الذي سيأتي ليصرخ فيهم ليحث على الانتقام وليس على إقامة العدل. إن قوة الأمم تتعاضد كثيراً عندما تستند إلى أخلاق القوة، فكيف ستكون إذن أفعال هؤلاء الذين سيقبلون المخاطرة بالموت باسم الكراهية فقط؟ إن صيناً حديثة تستصرخنا، لأن نقر من أنفسنا. أسيكون لها أن تنجو عبر أحد انفعالاتها العظيمة الجماعية التي قلبتها رأساً على عقب في جولات عديدة سابقة؟ لقد صار أقوى من أهازيج الأنبياء، ذلك الصوت الخافت للدعار الذي يسمع الآن في الأصداء البعيدة لآسيا...

ماذا أقول لك؟... إن التجار يشترون ويبيعون، والتجوم الحُبلى بالضرء تعكس اللاكىء على النهر، فوق الغفلة الهادئة...



من أ. د إلى لينغ

تيان. تسان.

صديقي العزيز،

لكل شخص أراد الحياة خارج بحثه الآني، عقيدة بإمكانها وحدها تنظيم العالم. وعوالم الأفعال، والأفكار، والدلالات التي يعيش فيها كلانا، لا تتناسب إلا على نحو يسير مع الاعتقادات؛ وقلوبنا المتشاقلة لا تبدو لي حاذقة أبداً في التلذذ، كيفما اتفق بتفكيك العالم والإنسان لبناء ما هو ضروري فقط، بالقدر الذي يرتبط فيه هذا الضروري بالفضائل.

إن القوة تخلصُ للإنسان مرتين، تخلصُ لمن خلقها، أولاً؛ ولمن يريد الحصول عليها بعد ذلك. وطوع إمرة طاقة بلا رأس، تعارض عناصر القوة الغريية وتتقاتل؛ وعلى الرغم من التدابير الإنسانية المؤقتة، فإحساس العالم الذي توجهه بغير حتى أن ترغب فيه يفلت من قراء الأخبار. فالانعكاسات غير المتوقعة لأفعال ما تسيطر على هذه الأفعال؛ والقوى القادرة على تغيير الوقائع تؤخذ سريعاً بهذه الانعكاسات فالذكاء يعرفه أنه لا يستطيع أن يمارس فوق لا واقع وبما أنه لا يستطيع إيجاد الموافقة الضرورية بينه وبين الاعتقاد الذي يسوغه. فبالكاد سيتلهى بحياسة وسائل الكذب. ولكن ما أهمية امتلاك بعض الوسائل ضد من هم واثقين

من عددهم وقوتهم؟ وبكثير أو قليل من الوضوح، فإن فكرة استئحالة القبض على زمام واقع أياً كان تُهيمن على أوروبا. إن القوة الظاهرة حتى في ضعفها، للبابا أو الملك، صارت اليوم لغواً؛ ولم يعد لها هيمنة كافية لكي يتشكل الوعي عبرها من هنا يجرى تغيُّر عميق للإنسان. يكتسب أهميته من تكسير العوائق التي لألف من السنين سبَّجت وحصَّنت العالم بالحياة الظاهرية، بأكثر مما يكتسب هذه الأهمية عبر الصرخات. فأن تكون هناك متعة، يا صديقي، لنفس جادة، في تجريب واقع فوضوي، فهي متعة مُسَخَّرَة من الحُمِيَّة، ومُسَخَّرَة في الفكر الذي غالباً ما يستمد وعيه من عقدة نقص!

إن الواقع الذي يشهد السقوط مُتحدُّ مع الأساطير، ويفضل هؤلاء الذين ولدوا من العقل. فماذا تستدعي رؤيا القوى غير الخاضعة للسيطرة، والتي تُجبر بهدوء وجه الحتمية العجوز، في حضارتنا ذات الإيمان الرائع وربما القاتل، والتي يتحلل فيها كل إغواء إلى وعي؟

إن في قلب العالم الغربي صراعاً بلا أمل، يتوارى تحت بعض الأشكال التي تكشفه لنا: صراعاً بين الإنسان وما خلقه، صراعاً بين المفكر وفكره، الأوربي وحضارته أو واقعه، صراعاً وعينا غير المكثرت وتعبيره في العالم الجمعي عبر وسائل هذا العالم، هذا الصراع أجده خلف كل رجفة من رجفات العالم الحديث ويغرق لبه الوقائع، ويُغرق نفسه، لينبىء بالاضمحلال في الوعي، ويجهزنا بممالك السخف المعدنية.

إن تطور الذات استهدف الغزو بالقوة ولم يستند إلى إجماع،



يل إلى نوع من انتهاز الفرصة، عبر مبايعة، أو عبر القبول  
بالأفكار المتحجرة لحزب ما. بما أنه ومنذ إضعاف الطبقة  
أرستقراطية المولد، أصبح لشعور الطائفة عندنا قوة غريبة وإرادة  
التمييز عن الآخرين لا يمكنها الاستناد إلى الغرور وحده؛ فبالإضافة  
إلى أنه لم يعد في استطاعتنا أن نسلم بأنفسنا من الواقع نجد،  
لدينا دائماً نزوعاً للإلحاح عليه عندما نعتقد بأنه صالح لأن يعطينا  
المتعة: وهو عالم محاولتنا للتبرير. إن عقلية الطائفة عندنا  
تستند إلى حاجتنا إلى الجديد، ويمكنك بسهولة ملاحظة ذلك مما  
يدل عليه: فالموضة، معترف بها، بالتأكيد أكثر من قيمة  
الحساسية الضرورية التي ترتبطون بها. وحيث أمن الموضة  
-وأمدّها هنا على تغير الملابس، والمواقف، والمقولات- وهي شيء  
خاص بأوروبا وبالبلاد التي أثّرت فيها، هي السمة الخارجية التي  
عبرها تتشكل أرستقراطية مؤقتة، تخضع لها الطبقات بقدر ما  
يطول الوقت الذي تأخذه في اللحاق بها وينطبق هذا في العالم  
الجمعي على الكل، فالتمييز، يعني بلوغ حالة من الاختلاف بين  
الأشياء الخاضعة لنفس النظام. أما في حياتنا النفسية، وفي عالمنا  
الشخصي، فهو بلوغ حالة من الاختلاف الطبيعي. فأحد هذين  
المجالين ينزع إلى تبرير، والآخر، نحو اللاجودي المطلقة لهذا  
التبرير. وهما يتباعدان أكثر فأكثر، ونحن نلاحظ هذا التباعد.  
فأي سخرية في هذا الفكر المزدوج، في هذا الإنسان المستعصي  
على أن يتمثل من الكون، سوى عناصر عدم القبول!

إن بعض الشباب يُكرّس أنفسهم لتغيير عالمهم الخاص. وهذا  
يعطيهم الشعور بالاختلاف الذي تحتاج إليه روحهم في الحياة.  
فيصبح عقلهم خادماً لهذا الاختلاف، ليس له من عمل سوى أن

يريهم تظاهرات عالم متحلل، فأبي إحساسٍ أو أي فعلٍ أو أي فكرٍ يُجبره على الخضوع، كحيوان مُقلد، يقوم بتقليد صورٍ لا يعرفها ويُظهرها كما هي. بما أن الفكر، الذي يشبهُ، يُطبَّق على العالم بأكثر مما تُطبَّق عليه العاطفة ولعلَّ قاتل الحياة لأسبابٍ أخرى أكثر غموضاً من تلك التي تجهلها اليد الغليظة للقانون، يمكن العثور عليه يوماً مُتلبساً بجريمته، أو بالعالم الجديد الذي يرتب له والوجه الشاذة تكشف عن نفسها في آمرة الحروب. فهل نحن أنفسنا الذين نتغير أم العالم هو الذي يتغير عندما تنحسر العاطفة، انحسارَ البحر، عن الفعل العاطفي الذي تعارضنا معه؟

إن فكرنا ينسلخ بأكثر مما يحدث لدى هؤلاء الشباب الصينيين الذين حدثني عنهم وأنج -لوه... وبضيق هادئ، نعي التناقض بين أفعالنا وحياتنا الباطنة. وهذه الحدة في التناقض لا يمكن تعزيتها إلى العقل؛ إنه يعي بها ويظل يطحن الخواء، آلة جميلة تطحنها بعض قطرات الدم... بما أن هذه الحياة الباطنة هي أيضاً البدائية الأولى؛ والقيمة التي يظهرها استبداد العقل لن تُنجينا منها فهو يقول لها: «إنك في الكذب، ووسيلة للكذب، يامختلقة الحقائق...» وترد عليه هي: «نعم، ولكن على طول الزمان، مع انتهاء النهار، اعتقد البشر أنهم يرون الغنى في الظلال وما لديك أنت ليس سوى الانعكاسات الأخيرة لهذا النهار الذي اختفى».

من أجل تدمير الله، ويعد تدميره أباد العقل الأوربي كل ما باستطاعته معارضة الإنسان؛ وبلوغه نهاية سعيه، صار مثل رانسي أمام جسد عشيقته، لا يجد سوى الموت، ومع صورتها

يصل في النهاية إلى اكتشاف أنه لن يستطيع بعد أن يُكِنَّ عاطفة لها. ولم يحدث أبداً اكتشاف مُقلِّق كهذا...

لا يوجد المثال الذي تستطيع التضحية من أجله، وبما أن الأكاذيب في كل ما نعرفه، فنحن لن نعرف أبداً ماهي الحقيقة. إن الظل الأرضي الذي يتمدد خلف آهة الرخام يكفي لأن يبعدنا عنها فبأي ضغط يتقيّد الإنسان إلى نفسه! وعن الوطن، والعدل، والعظمة، والحقيقة، أي من هذه التماثيل لا يحمل آثار الأيدي الإنسانية بما لا يجعله يثير فينا نفس السخرية المريرة التي أحبتها الوجوه العجوز فيما مضى؟ إن الفهم لا يسمح أبداً بكل الأبعاد. ومع ذلك فأني تضحيات، وأي بطولات لم تتحقق بعد ترقداً داخلنا...

لا بد، أنه يوجد إيمان أعظم: من هذه التي تعرض الصليبان في كل القرى، وهذه الصليبان نفسها التي تهيمن على موتانا. إنها محبة، وفيها سكون. إنني لن أقبلها أبداً؛ ولن أنحني أبداً إليها لأطلب السكون الذي يدعوني إليه ضعفي. إن أوروبا مقبرة كبيرة لا يرقد فيها سوى الغزاة الموتى الذين تصبح التعاسة أعمق عندما نزين أسماءهم الشهيرة لكنك لا تترك حولي سوى أفقٍ أجرد وسوى المرأة التي تعكس اليأس. أيها المعلم العجوز للوحدة. الذي ربما يكون قد مات هو أيضاً، في حياته الخاصة. بعيداً، في الميناء، جنية بحر تعوي ككلب ضال. ياصوت النذالات المفهورة... إنني أصدق في صورتي. ولن أنساها بعد.

أيتها الصورة المهترئة لي، إنني لك بغير حب. كجرح كبير لا يتدمل، إنك مجدي الميت وعذابي الحي. لقد أعطيتك كل شيء؛

ومع ذلك، أعلم أنني لن أحبك أبداً. ويغير أن أنحنى، سأحمل لك السلامَ قرباناً كل يوم. أيها الصحو المتلهف. إنني أحترق ثانيةً أمامك، شعلةً فريدة ومنتصبّة. في هذه الليلة المثقلة التي يصرخ فيها الريحُ الأصفر، كما في كل الليالي الغريبة التي يردد فيها ربحُ اليمّ من حولي، الصيحاتِ المتشامخة للبحرِ العقيم.



## المحتويات

١١	..... ملحوظة	❖
١٣	..... على سطح الشامورد	❖
١٩	..... من لينغ إلى أ. د	❖
٢٣	..... منه إليه	❖
٢٩	..... منه إليه	❖
٣٥	..... منه إليه	❖
٤١	..... منه إليه	❖
٤٩	..... منه إليه في اجابة على خطاب غير ذي أهمية	❖
٥٩	..... من أ. د إلى لينغ	❖
٦٧	..... من لينغ إلى أ. د	❖
٧٣	..... منه إليه	❖
٨١	..... منه إليه	❖
٨٥	..... من أ. د إلى لينغ	❖
٩٣	..... من لينغ إلى أ. د	❖
١٠١	..... من أ. د إلى لينغ	❖
١٠٧	..... من لينغ إلى أ. د	❖
١١١	..... من أ. د إلى لينغ	❖
١١٩	..... من لينغ إلى أ. د	❖
١٢٧	..... من أ. د إلى لينغ	❖



رقم الايداع ٩٥ / ٣٩٩٥

الترقيم الدولي ٩٧٧-٥٤٠٦-٥٦-٠ ISBN



صدر في هذه السلسلة :

- ١ < أيام من حياتي ❖ هرمان هسه
- ٢ < قصص التحول في الأدب العالمي الحديث  
جوجول، كافكا، روث
- ٣ < أثر العابر ❖ أمجد ناصر
- ٤ < من مجمرة البدايات ❖ محمد عفيفي مطر
- ٥ < حمار البحر ❖ خالد عبد المنعم
- ٦ < خطوط الضعف ❖ علاء خالد
- ٧ < مرمعتم يصلح لتعلم الرقص  
إيمان مرسال
- ٨ < ثمة موسيقى تنزل السلام  
علي منصور
- ٩ < صمت قطنة مبتلة ❖ فاطمة قنديل
- ١٠ < شهرزاد في الفكر العربي الحديث  
د. مصطفى عبد الغنى